أبي العلاء المعري

دراسات

جواب اعتراضات ابن المعري على شرح ابن السيد البطليوسي لديوان المعري

قرأها وعلق عليها

وليد محمد السراقبي

النصوص المحققة

جواب اعتراضات ابن العربي على شرح ابن السيد البطليوسي لديوان أبي العلاء المعري

وضعها: أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي (ت ٣٨٢هـ / ٩٩٢م)

قرأها وعلق عليها: الدكتور وليد محمد السراقبي(*)

المؤلف:

هو أبو محمد عبد الله بن السَّيِّد البَطَلْيوسي : نحوي ولغوي وأديب، كان الناس يتقاطرون إليه يغترفون من علمه، ويقرؤون عليه، كان ثقة ضابطاً.

قال عنه ابن خلكان : «فكل شيْ يتكلَّم فيه فهو غاية في الجودة»(١). ولد سنة ٤٤٤هـ في مدينة «بطليوس»، وتوفي سنة ٥٢١هـ في مدينة بَلَنْسية. خَلف كتباً كثيرة في اللغة، والآدب، والنحو، منها: المثلَّث، والاقتضاب في شرح أدب الكتاب، والفرق بين الأحرف الخمسة، والحلل في شرح أبيات الجمل، وإصلاح الخلل الواقع في شرح الجمل، وشرح سقط الزند لأبي العلاء المعري . قيل عنه : «إنه أجود من شرح لأبي العلاء صاحب الديوان»(٢).

الرسالة:

تقع هذه الرسالة في خمس عشرة لوحة، وهو مكتوبة بالخط المغربي، ويضمها مجموع فيه ثماني عشرة رسالة(٣) لابن السيد البطليوسي، وهي أولى هذه الرسائل . وهي مما وقفه محمد الكفوي على علماء جامع الأزهر وطلبة العلم فيه في رواق «الأروام» .

وتحتفظ المكتبة المركزية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ أعلى الله بناءها ـ بصورة عنها، ورقمها (٤٣٢٥/ ف).

جاء على الصفحة الأولى من المخطوط : «هذه مجموعة تشتمل على ثمانية عشر مصَّنفاً

---

* أستاذ مساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض ـ السعودية.

(١) وفيات الأعيان ١ : ٩٦ـ ٩٨.

(٢) ترجمة ابن السيد في : الديباج المذهب : ١٤٠، وفيات الأعيان ١ : ٩٦ ـ ٩٨، تاريخ الأدب العربي لعمر فرّوخ ٥ : ١٥٢ ـ ١٥٩، ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ١٠٩٢، والأعلام ٤ : ٢٦٨، وتاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ٨ : ٢.

(٣) قربنا على الانتهاء من تحقيقها جميعها، وسنصدرها تباعاً، إن شاء الله.

من مصنَّفات العالم النحويّ، الفاضل الكامل، صاحب لتقرير والتحرير، الفقيه النحويّ، إمام العصر في المغرب، خاتمة المحقِّقين أبي محمد عبد الله بن محمد بن السَّيِّد البَطَلْيوسي المغربي - رحمه الله رحمة واسعة أفادنا الله منه . . . . . وأعاد علينا من موائده فوائده، وفهمنا من درر زوائده».

وكتب في وسط الصفحة أيضاً : «وقَفه محَّمد الكفويُّ على علماء الأزهر وطلبة العلم له، ومقرّه برواق الأروام، تقبل الله منه بمنه وكرمه آمين».

وكتب في الجهة اليسرى من الصفحة تملُّك نصه : «من نعم الله سبحانه على أفقر الطلاب . . . . محمد إبراهيم بن أحمد الصادق العمري الحسيني النقشبندي اغفر اللهم له ولوالديه، وكن بفضلك . . . . . [1] عليه، وانفعه ومتعه بمطالعته وانفعه به وبسائر ما لديه من الكتب العلمية، بالنبي وآله وصحيفتيه . تم من نعمه سبحانه على عبده الكفوي، عفا عنه».

ثم صنع فهرست بالرسائل التي يضمّها هذا المجموع، وبلغ عددها ثماني عشرة رسالة، وجميع أوراق المخطوط ثمان وسبعون ورقة.

يبلغ عدد أسطر كل لوحة (٢٥) سطراً وتتراوح كلمات كل سطر بين (١٠-١٢) كلمة. وفي بعض الأوراق طمس لبعض الكلمات، ولا سيما تلك التي تقع في الهامشين القريبين من مفصل الكتاب، وأظن أن ذلك عائد إلىٰ مشقة فتح الكتاب على مصراعيه أثناء التصوير.

وموضوع الرسالة الرد على اعتراضات ابن العربي على ابن السيد في شرحه سقط الزند لأبي العلاء المعري، وهو دائرة حول تفسير بيت، أو خطأ في رواية، أو تصحيف في لفظ، أو غلط في ضبط.

يبدأ ابن السيد رده بقوله : «ورأيناك - أبقاك الله - لمَّا وصلت إلى قوله : . . .» أو «وجدناك لما وصلت بالمطالعة إلى قوله . . . .» فيذكر البيت الذي اعترض عليه ابن العربيّ، ويذكر موضع اعتراضه عليه، ثم يعمد إلى الرد على ابن العربيّ، وينتصر لقوله ويثبت صحة قوله الذي قال به، ويفند رأي ابن العربيّ، مستظهراً على ذلك بآي من القرآن الكريم، أو ببيت من الشعر، أو برأي لعلماء اللغة، أو غير ذلك.

(١) بياض في الأصل.

صورة الورقة الأولى

صورة الورقة الأخيرة

بسم الله الرحمن الرحيم
صلّى الله على محمد وآله وسلّم تسليماً

أخبرني الفقيه النحويُّ أبو محمَّد عبد الله بن محمد بن السَّيد البطليوسيّ بهذا الجزء قراءة مني عليه، قلت له: قلتَ ـ رضي الله عنك ـ : إنّ أولى ما ابتُدئ به كل ذكر، وأحْجى ما تُيمّن به في كل أمر واستُنْجح، ذكر الله تعالىٰ، ثم الصلاة على رسوله المصطفىٰ الذي هدانا بهداه، وعلّمنا ما تقصر عقولنا عن بلوغ أدناه، وأهدى إلينا الاستبصار مفروغاً منه، ولم يحوجنا إلىٰ البحث بالمقاييس عنه، نشكره شكر المعترف بالعجز عن شكر نعماه، ونسأله أن يوفقنا إلىٰ ما يزلف إليه وبرضاه، ونستعيذ به من وساوس الصدور، وعواقت الأمور.

رأيت ـ أراك الله منهج الحق وسَنَنَه، وجعلك من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ـ اعتراضات ابن العربي[١] علينا في شرح شعر المعري[٢]، ولسنا ننكر معارضة المعارضين، ومناقضة المناقضين، فإنها سبيل العلماء المعروفة وطريقهم المألوفة: [من الطويل]

ومَنْ ذا الذي تُرْضَى سجاياهُ كلُّها ... كفى المرءَ نُبْلاً أن تُعَدَّ معايبُه[٣]

وإنما ننكر من أمر هذا الرجل ـ وفقنا الله وإياه إلىٰ صالح العمل ـ أنه تعسّف وما أنصف، وجاء في المعارضة والخلاف، بأشياء استطرفتها غاية الاستطراف. وذلك أنه وجد أبياتاً أفسدها ناسخ الديوان، بالزيادة والنقصان، فعادت مكسورة الأوزان، ونَبَتِ العَيْن، عمّا فيها من الشَّيْن، فنبّه عليها في طُرَر الكتاب، وبين فيها وجه الصواب. كأنّه توهّم ـ عفا الله عنه ـ أننا من الطائفة التي لا تقيم وزن الشعر، ولا تحسن شيئاً من النظم والنثر.

وكذلك وجد خطأً من الناسخ في بعض الأحرف، فظنّه من قبل المؤلف المصنِّف، فتفضّل بأن نبّه عليه في طُرَر[٤] الكتاب، فحصلنا عنده في مرتبة من لا يقيم وزن الشعر ولا يحسن الإعراب. ولولا ظن بنا هذا الرجل ـ وفقّه الله ـ عجْزاً عن الانتصاف والانتصار، كما توهّم علينا الجهل بالإعراب وكسر الأشعار، لصمتْنا عن مراجعته صَمْت الرُّجَم، ولم نتشاغل بتصريف لسانٍ في مجاوبة ولا قلم. ولكن سوء معاملته أحوج إلىٰ الكلام، ولو تُرِك القطا ليلاً لنام. وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وعسى أنْ تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم﴾ [البقرة ٢: ٢١٦]. ثم قال أبو

---

(١) هو محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي، أبو بكر بن العربي: حافظ للحديث، ولد في إشبيلية، وارتحل إلىٰ الشرق، وبرع في الأدب، له: أحكام القرآن، والناسخ والمنسوخ، وقانون التأويل، وغيرها. وهو غير محيي الدين بن العربي. الأعلام ٦: ٢٣٠.

(٢) أحمد بن عبد الله بن سليمان التَّنوخي المعري: شاعر وفيلسوف، ولد في معرة النعمان سنة ٣٦٢هـ، وتوفي فيها سنة ٤٤٩هـ، ترجمته في: الأعلام ١: ١٥٧.

(٣) ينسب البيت إلى بشار بن برد، وإلىٰ يزيد بن محمد المهلبيّ (ت ٢٥٩هـ)، وهو في ديوان بشار ق ٥٥، ب ١٤ (ط. محمد بدر الدين العلوي)، وليس في ديوانه (ط. محمد الطاهر بن عاشور)، وهو في: المنتخب من معجم شيوخ السَّمعاني ١: ٥٢٠، ومغني اللبيب: ١٣.

(٤) الطُّرر: جمع طُرَّة، وهي الحاشية.

الطيب[١]:

[من الخفيف]

رُبَّ أمرٍ أتاكَ لا تَحْمَدُ الفُعَّالَ فيه وتَحمدُ الأفعالا
وقِسِيٍّ رُميتُ عنها فرُدَّت في نحورِ الرماةِ عَنْها النِّصالا

فأوّل ما نقوله لهذا الرجل ـ وفّقنا الله وإيّاه ـ: إن كان ما يجري مجرى السهو ويعدّ من اللغو، يُخسَتُ من الذنوب، ويعتدّ به في العيوب، فقد كتبت بخطك في معارضتك إيّانا أشياء صحّفت فيها وحرّفت، وكَسَرتَ الوزن ولحنت أقبح لحنٍ، فنحن نتوخى فيها معك مناقشة الحساب، ونعاتبك أشد ما يكون من العتاب:

[من الطويل]

فلا تغضبَنْ من سِيرةٍ أنت سِرْتَها وأوّلُ راضٍ سيرةً مَنْ يسيرها[٢]

ولقد أذكرني أمري معك حكاية حكاها الصُّوليّ[٣] ـ رحمه الله ـ قال: «كتبت إلى بعض إخواني كتاباً، فورد عليّ جوابه يقول فيه: ورد عليَّ كتابك وقد أعبت عليك حَرْفاً فراجعه. وافاني جوابك وقفت عليه، وقد عِبْتُ عليك قولك «أعَبْت». وهذا حسن، تبدأ للمناقشة، وتهيّأ للمخاصمة».

وجدناك ـ أعزّك الله ـ لّما انتهيت إلى قول المعريّ[٤]:

[من الوافر]

أُراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النَّبيثِ
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكونِ النفس في الجسد الخبيثِ

كتبت في الطرة منكراً لروايتنا متوهماً للتصحيف علينا الذي قرأناه: «شجوني» ـ بالشين المعجمة ـ فأي مدخل ههنا لـ «الشجون» ـ أبقاك الله ـ؟! وهل هذا من التصحيف الطريف؟! إنما وصف المعري أني مسجونٌ في ثلاثة سجون، ثم فسر السجون فجعل جسمه سجناً لنفسه، وبيته سجناً لشخصه، وعماه سجناً لبصره، لأنه كان يرى أن النفس معذبة كونها في الأجسام، وأن راحتها في مفارقتها عند الحمام. وبنحوٍ من هذا المترع سمَّى[٥] نفسه رهين المحبسين.

وقد كرّر هذا المعنى في مواضع كثيرة من شعره استحساناً له، وإن لم يستوفِ هذا الغرض

---

(١) البيتان في ديوان المتنبي ٣ : ٢٥٨. الفُعَّال: الروم الذين أتوا بآلات الحرب.

(٢) البيت لخالد بن زهير، ونسبه ابن برّي إلى خالد ابن أخت أبي ذؤيب الهذلي، وكان أبو ذؤيب يرسل له إلى محبوبته فأفسدها عليه فعاتبه أبو ذؤيب فرد عليه خالد بأبيات منها الشاهد. والبيت في لسان العرب (سير)، وروايته: «فلا تجزعنْ... فأوّل....» ـ السيرة: المنهج والطريقة.

(٣) إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، أبو إسحاق، ولد في بغداد، وأصبح كاتباً للمعتصم بالله والواثق والمتوكل. توفي سنة ٢٤٣هـ. له جملة من الآثار المطبوعة والمخطوطة. ترجمته في: الأعلام ١: ٤٥.

(٤) البيتان في اللزوميات ١: ٢٤٩ (ط. دار صادر) ـ النَّبيث: العيب الظاهر. يقال: ينبث فلان عن عيوب الناس، أي يظهرها.

(٥) الكلمة ساقطة من المتن وكتبت في الهامش.

كلّه. فمنها، قوله(١): [من الطويل]

أتحدثُ للأرواحِ راحةُ مطلقٍ إذا فارقت، إنّ الجسوم سجون؟

ومنها قوله(٢): [من الطويل]

أتأسى النفس للجثمان تبلى وهل يأسى الخَنَا لفراق دَجْنِ
وما ضرَّ الحمامة كسر ضنكٍ من الأقفاص كان أضر سجنِ

ووجدنا من لحنك وتصحيفك أنك لمّا وصلت إلى قول المعري(٣):

ولولا حِفاظي قلت للمرء صاحبي [بسيفك قيّدها](٤) غلست أُبالي

أنكرت قولنا وكتبت في الطرَّة: قول ابن مقبل(٥) أقعدُ به(٦): [من البسيط]

يا صاحبيَّ على ثَأْدٍ(٧) سبيلُكما علماً يقيناً ألما تعلما خبري
إني أقيّدُ بالمأثورِ راحلتي ولا أبالي ولو كنّا على سفر

فاستطرفنا ما كتبته جداً، لأنك أردت أن تخطّئنا من وجه واحد فأخطأت أنت من أربعة وجوه، أحدها: إنك كتبت «ثأد» بدالٍ غير معجمة، وهمزتَ الألف، وإنما هو «ثأج» ـ بالجيم غير مهموز، وهو ماءٌ لَخثعم(٨). وفيه قول الشاعر(٩): [من البسيط]

يا دار ميّة بالخفتَيْن مِنْ ثاجِ سقيتِ أخلاف هامي الوَدْق ثجّاج(١٠)

---

(١) اللزوميات٢: ٣٤١، وروايته:

«فإن كانت الأرواح بعتد فراقها تنال رخاء فالجسوم سجون»

(٢) اللزوميات٢: ٣٨٨، ورواية الأول«... وهل أسى الحيا الفراق دَجْن».

(٣) سقط الزند ٣: ١١٧٠، ق٥٨، ب٧. والحِفّاظ: رعاية الصحبة.

(٤) مطموسة في الأصل والتكملة من سقط الزند.

(٥) هو تميم بن أبي بن مقبل، من بني عجلان، شاعر مخضرم، توفي سنة ٣٧هـ. له ديوان شعر حققه ونشره المرحوم الدكتور عزّة حسن. ترجمته في: الأعلام ١: ٨٧، ومقدمة تحقيق ديوانه.

(٦) البيتان في ديوان تميم: ٧٧، ق ١٠، ب١٨ـ١٩، والرواية فيه:

يا جارتيَّ على ثَأْجٍ طريقكما سيراً حثيثاً ألَمّا تعلما خبري
إني أقيِّدُ بالمأثورِ راحلتي ولا أبالي ولو كُن على سفر

وهما أيضاً في شروح سقط الزند ٣: ١١٧٠. ١١٧١، وشرح الحماسة للتبريزي ٤: ١١٣ (ط. بولاق)، ومعجم ما استعجم ١: ٣٣٣، ومعجم البلدان (ثأج) ٢: ٧٠ ـ المأثور: السيف، سمّي به لأجل إثره ؛ أي فرنده. وقيل هو السيف الذي به أثر ؛ أي ثلم. أقيدها: يضرب عراقيبها. قال الخوارزمي في شرحه البيت: «وقد ملّح في استعارته التقييد للعرقبة وأحسن حين قدّم قوله: بسيفك على قيدها ليعلم في أوّل الامر أنه يريد بالتقييد العرقبة». سقط الزند ٣: ١١٧١. وثأج، ثاج: ماء لبني القَرَع من خثعم من مياه بيشة، وقيل: هو في ناحية اليمامة.

(٧) الثأد: القرُّ والندى، والثد: النبات الناعم الغض.

(٨) خَثعم: قبيلة من معد، وهو خثعم بن أنمار، وقيل: خثعم اسم جبل سميت به القبيلة.

(٩) لم أقف عليه.

(١٠) ثاج: يهمز ولا يهمز، عين قريبة من البحرين، وقيل، هي قرية في البحرين. مرّ بها بن أبي بن مقبل على =

والوجه الثاني: إنك كتبت «يا صاحبيّ» وإنما هو «يا جارتيّ». كذا في شعر ابن مقبل. ويدل على صحة ذلك قوله قبل البيت[١]: [من البسيط]

قالت سليمى ببطن القاعِ من سُرُعٍ[٢] لا خير في العيش بعد الشيب والكبرِ
واستهزأتْ تِربُها[٣] منسيّ فقلت لها ماذا تَعيبان منّي يا ابنتيّ عَصَرِ
لولا الحياء وباقي الدِّينِ عبتُكما ببعضِ ما فيكما إذْ عبتما عَوَري
ما أنتما والذي خالَتْ حلومُكما إلا كَحيرانَ إذا تَسْري بلا قَدَرِ

ثم قال: يا جارتيّ، وعني بالجارتين سُلَيْمى وتِربَها المتقدمة الذكر.

والوجه الثالث: إنك قلت: «ولو كنّا على سفري»؛ فأثبتّ ياءً بعد الراء، وكأنك توهمت أنه أضاف السفر إلىٰ نفسه، وتأنّقت في تعريف الياء غاية التأنق ليتحقق خطؤك غاية التحقّق. وليس بعد هذه الراء ياء على الإطلاق. وهي ياء تزاد بعد حرف الرويّ للترنّم إذا كان مكسوراً، كما تُزاد بعده واو إذا كان مضموماً، وألف إذا كان مفتوحاً. ولا تصوّر الخط من هذه الأحرف الثلاثة إلا ألف، وسبيلها سبيل التنوين، نحو قول جرير[٤]: [من الوافر]

أقلّي اللوم عاذلَ والعتابَنْ وقولي إنْ أصبت: لقد أصابَنْ

والوجه الرابع: إنّك قلت معنى بيت ابن مقبل: «أقعد» بمعنى بيت أبي العلاء. وهو لا يشبهه لا في ذكر التفسير بالسيف لاغير؛ لأن ابن مقبل أراد أن يعرقبها للأضياف جوداً وكرماً. وأراد المعريّ عرقبتها ضجراً من نزاعها إلى أوطانها وتبرّماً. وإن غلطك في هذا لعجيبٌ، لأن الشعر يدل على قلناه دلالة لا تخفى على متأمل.

ووجدناك من خطئك أنك لّما وصلت إلى قوله[٥]: [من الطويل]

فلولاك بعد الله ما عُرِفَ النّدى ولا ثار بين الخافقين قَتَامُ

أنكرت قولنا: إن الخافقين هما المشرق والمغرب، وكتبت في طرّة الكتاب لتعلمنا بوجه الصواب: المعلوم أنّ «الخافقان»: جانبا الأرض من الهواء، فأردت أن تخطئنا من وجه واحد فأخطأت أنت من ثلاثة أوجه، أحدها: إنك رفعت «الخافقين» وهما منصوبان بـ«أنّ». ثم صححت عليها فكان تصحيحك على اللحن أشد من اللحن. والوجه الثاني: أنك جعلت قولنا غير معروف وقولك هو المعروف. وهذا من المقلوب الذي قلناه نحن هو قول يعقوب بن

= امرأتين فاستسقاهما فأخرجنا له الماء، فلما رأتاه أعور منعتاه الماء. ثجّاج: كثير الماء.

(١) ديوان تميم: ٧٦-٧٧، والبيتان الأول والثالث في معجم البلدان (أسن، ونى)، والأول في معجم ما استعجم للبكري / ٧٣٥، ومعجم البلدان(سرح، سرع) واللسان(أنس، أسن). والبيت الثالث في اللسان (بعض).

(٢) سُرُع: موضع في البحرين.

(٣) التِّرب: المساوي في السن.

(٤) ديوان جرير: ٨١٣.

(٥) سقط الزند: ٦١٧، ق١٨، ب ٣١. القَتَام والغُبار واحد.

السكّيت[١] في إصلاح المنطق[٢]. وقال مثله أيضاً في كتابه «المثنّى والمكنّى والمبنّى»[٣]. وكذلك قال أبو عبيد[٤]، وأبو حاتم[٥].

وكذلك قال الأصبهانيّ[٦] في كتاب «أَفْعلُ من كذا»[٧] فقولك هو الذي ليس بمشهور لا قولنا. والوجه الثالث من خطئك في هذه المسألة أنك رأيت شيئاً ولم تحسن العبارة عنه، أو رأيته في كتاب من لم يحسن إيراده فحكيت قوله.

وحقيقة هذا ـ أبقاك الله ـ أن هذه المسألة من المسائل التي أنكرها بعض اللغويين على يعقوب وقال: لا يصحُّ أن يُقَال للمشرق والمغرب خافقان، لأن الخافق هو المتحرّك المضطرب، والمشرق والمغرب لا يوصفان بالاضطراب، إنما يضطرب الهواء فيهما أوّل الليل والنهار، فإنما ينبغي أن يقال لهما: مَخْفقان لا خافقان كما يقال لموضع الضرب مَضرِب، ولموضع الغرس: مَغْرِس.

وهكذا يقال للقفر الذي يخفق فيه السراب. قال رؤبة[٨]: [من مشطور الرجز]

ومَخْفِقٍ مِنْ لُهْلُهٍ ولُهْلُهِ

وهذا الذي قاله هذا المعترض على يعقوب حكاه من وجهين، أحدهما: إن يعقوب لم يقلْه وحده، بل قاله جماعة غير يعقوب. والثاني: أن العرب قد تأتي بالمفعول به والمفعول فيه على صيغة فاعل، كقولهم[٩]: ماءٌ دافق، وعيشةٌ راضية، وسرٌّ كاتم، ونهارك صائم، وليلك

---

(١) يعقوب بن السكّيت (١٨٦ـ٢٤٤هـ) لغوي أصله من خوزستان. من أهم كتبه: إصلاح المنطق. الأعلام ٨: ١٩٥.

(٢) إصلاح المنطق: ٣٩٧.

(٣) ورد عنوان الكتاب عند السيوطي «المثّنى والمكنّى والمؤاخى والمشبّه والمنحَل». وفي المزهر أقسام من الكتاب. ابن السكّيت اللغوي: ١٠٤ـ١٠٥، ولأبي سهل الهروي (ت٤٣٣هـ) كتاب «المكنّى والمثنّى». انظر مقدمة تحقيق إسفار الفصيح: ١١٩.

(٤) هو القاسم بن سلام الهروي (١٥٧ـ٢٢٤هـ): عالم بالحديث والأدب. الأعلام٥: ١٧٦.

(٥) سهل بن محمد السجستاني (. . . ـ٢٤٨هـ): عالم باللغة والشعر. الأعلام٨: ١٤٣.

(٦) وهو حمزة بن الحسن الأصفهاني (ت٣٦٠هـ). أهم كتبه: الأمثال السائرة، والتنبيه على حدوث التصحيف.

(٧) صدر الكتاب مرتين، الأول بتحقيق د. عبد المجيد قطامش، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢. والثانية بتحقيق د. فهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨. والقول في الأمثال السائرة ٢: ٥١٥، تح د. عبد المجيد قطامش و ٤٤٦ تح د. فهمي سعد.

(٨) ديوان رؤبة: ١٦٦،ب ٣٤، واللسان (لهله) مع بيتين آخرين. واللُّهْله: الأرض الواسعة يضطرب فيها السراب.

(٩) الكتاب ١: ٣٣٧، ٤٠١، والفصوص ٢، ٢٣، واللسان (دفق)، وخزانة الأدب ١: ٤٤٦، قال الفراء: «معنى دافق: مدفوق. . . وأهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم أن يفعلوا المفعول فاعلاً إذا كان في مذهب نعت، كقول العرب: هذا سرٌّ كاتم، وهمٌّ ناصب، وليلٌ نائم. وقيل: ماءٌ دافق: أي ذو دَفْق، وسرّ كاتم: أي ذو كتمان».

قائم(١). ولو جمع هذا النوع لجاء منه جزء ضخم، فمنه قول جرير(٢): [من الطويل]

لقد لِمتنا يا أمّ غَيلانَ في السُّرى ونمتِ وما ليل المطيّ بنائم

وقرأت تفسيرنا له وجدتنا قد قلنا: إنه أراد أن الفلك محيط بالخلق والخَلْق قبضته لا يقدرون على الخروج منه، فكأنّه لم فيه من النجوم المشتبكة شبكة أرسلها قانص على صيد فهو يضطرب فيها ولا يقدر على التخلّص منها، فحملك قلّة التثبّت على أن كتبت في الطرّة: هذا اللفظ لا يطلق إلا على الله - تعالى - ونسيت قول الله - عزّوجل - ﴿يا معشرَ الجنّ والإنس إنِ استطعتم أنْ تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ [الرحمن ٥٥: ٣٣] فوصف تعالى أن الخلق في قبضة الفلك لا يقدرون على الخروج منه، فلم يزد الشاعر على معنى الآية أكثر من تشبيه بالشبكة. فإنْ أنكرت أن يكون الفلك هو السماء بعينها أو [........](٣) ذلك في القرآن العزيز. قال الله تعالى - جلّ من قائل -: ﴿تباركَ الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ [الفرقان ٦١: ٢٥] وقال: ﴿ألمْ تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً والشمس سراجاً﴾ [نوح ١٦: ٧١] في هاتين الآيتين العزيزتين أن الشمس والقمر في السماء. ثم قال في آية أخرى: ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أنْ تدركَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهار وكلٌّ في فلكٍ يسبحون﴾ [يس: ٤٥] فاستنتج من مجموع هذه الآيات أن الأفلاك السموات.

ولما وصلت إلى قوله(٤): [من الطويل]

وإني لمثر يا بن آخر ليلة وإن عَزَّ مالي فالقُنوع ثراء

وجدت الناسخ قد عظّم الراء فصارت كالنون فنبهت عليه في الطرّة أنها «مُثر» لا «مثن». فهلاّ تأملت - أبقاك الله - الشرح فيكون لك فيه كاف ومغن؟ ولكن صدق الله - تعالى - إذ يقول: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ وكذا فعلت في مواضع كثيرة. كتبت الطرّة ما كنت غنيّاً عن كتابته لو تأملت الشرح كفعلك حين وصلت بالمطالعة إلى قول المعري(٥): [من المنسرح]

بالله يا دهرُ أذقْ غرابَها موتاً من الصبح بباز كُرزِ

في نحو قولك: لألزمنّك أو تقضيني حقّي، ولأسيرنّ(٦) في البلاد أو أستغنيَ، وقول امرئ

---

(١) في الكتاب ١: ١٦٠: «نهاره صائمٌ وليلهُ قائم».

(٢) ديوان جرير: ٩٩٣، ق٤٧، ب: ٦، والكتاب ١: ١٦٠، وخزانة الأدب ١: ٤٤٦.

(٣) بعض الكلمات لم أستطع قراءتها.

(٤) شروح سقط الزند، ق ١٠، ب ٥، ج ١: ٣٩٤. وروايته: «وإن عزّ مال.........». والمراد: يا ابن آخر ليلة من ليالي الطّهر. يقال: إن المرأة إذا حملت بالولد في آخر ليلة من طهرها كان مذموماً ويقال فيه: حملته أمه تُضعاً ووضعاً. وإذا حملته في أول الطهر كان محموداً. والقنوع: القناعة. والمثري: المكثر من المال.

(٥) لم أقف عليه في آثار أبي العلاء.

(٦) طمس نصف الكلمة في الأصل.

القيس[1]: [من الطويل]

فقلتُ لـه: لاتبـكِ عينُـك إنَّمـا ... نحـاولُ ملْكـاً أو نمـوتَ فنُعْـذرا

وكنّا رأيناك لمّا وصلت بالنظر إلى قول المعري[2]: [من الطويل]

فكـأنّـي مـا قلـتُ والليـل طفـلٌ ... وشبـابُ الظَّلْمـاءِ فـي العنفـوانِ

ليلتـي هـذهِ عـروسٌ مـن الـزنـج ... عليهـا قـلائـدٌ مـن جُمَـانِ

كتبت في الطرّة: «صوابه وروايته: والبدرُ طفل». وحكيت عن شيخك أنه فسَّره فقال: يعني أوّل الشهر. وقد رأيت هذه الرواية في بعض نسخ «السقط» فلم أعرج عليها وأنزلتها منزلة الغلط؛ لأنه كلام متناقض، وذلك أنه لا يصح أن يوصَفَ بالطفولّية إلا الهلال، لأنه في أول نشئه.

وأما البدر فلا يجب أن يقال له: طفل، لأنَّ اسم البدر إنَّما يقع في تمامه وامتلائه. فمن سمى البدر طفلاً كان كمن سمَّى الكهل صبياً، والتامّ ناقصاً، فلا يصحُّ أن يسمى البدر طفلاً ولا هلالاً، كما لا يصحُّ أن يسمى الهلال بدراً. وأمّا الليل فإنَّه يشبه في أول انبعاثه بالطفل، وفي حين انتصافه واستحكام ظلامه بالكهل، وفي حال إدباره بالشيخ، وفي ذلك كثير من الشعر.

فمن مليح ما جاء في ذلك قول أبي فراس[3]: [من الطويل]

لبسنـا رداءَ الليـلِ والليـلُ راضِـعٌ ... إلـى أنْ تـردَّى رأسُـه بمشيـبِ

فجعل الليل في أوله كالطفل الراضع، وفي آخره كالشيخ الأشيب.

وقد وصفه أبو العلاء بالاكتهال في قصيدة أخرى، فقال[4]: [من الطويل]

مـن الـزنـج كَهـلٌ شـابَ مفرقُ رأسِـه ... وأوثـقَ حتّـى نهضُـه متثـاقـلُ

وقد ألممتُ ببعض هذا المعنى استحساناً فقلت: [من الطويل]

تـرى ليلَنـا شـابـتْ نـواصيـه كِبْـرةً ... كمـا شبـتُ، أو فـي الجـو روضُ نهـارِ

كـأنَّ الليـالـي الشفـعَ فـي الأفْـق جُمِّعـتْ ... ولا فضـلَ فيمـا بينَهـا لنهـارِ

ومما يدلُّ على أنَّ ذكر البدر هنا غلط خروجه من التشبيه المذكور في البيت الذي بعده؛ لأنه شبه الليلة بسوداء، وشبَّه النجوم بقلائد الجمان، ولم يشبه البدر ولا الهلال بشيء.

ورأيناك قد زدتَ في القصيدة المهموزة بيتاً فاسد الوزن، وهو[5]:

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٤٢٥.

(٢) شروح سقط الزند: ق١٤، ب٦-٧، ج١: ٤٢٨، وروايته«. . . . والبَدْر. . .». العنفوان: أول كل شيء ومقدّمه. قال البطليوسي ١: ٤٢٩: «وجعل الليل طفلاً في هذا الموضع طفلاً لاقتباله. وقد جعله في موضع آخر كهلاً لما فيه من النجوم الشبيهة بالشيب.

(٣) ديوان أبي فراس: ٣٩.

(٤) شروح سقط الزند، ق١٦، ب٣٣، ق٢: ٥٤٥.

(٥) اللزوميات ١: ٤٨، والرواية: «أنت يا آدم. . . . . . .» ـ الشرب: القطيع من النساء والظباء ـ حواء: من اختلط=

[من الخفيف]

أنــــت يـــا آدَ! آدمُ التــــرب حـــواؤك فيـــه حـــواء أو أدمـــاءُ

وهذا البيت أسقطناه من الشعر متعمِّدين لإسقاطه لما فيه من الاستخفاف بآدم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهكذا فعلنا بكثير من شعره. وإنَّما ذكرنا منه ما له تأويل حسن، فكيف أفسدت علينا الكتاب بإثباته فيه وكان يجب أن تتنزّه عنه كما تنزَّهنا؟ وقوله: «يا آدَ!» أراد: يا آدم فرخَّمه. وأما معناه فلا حاجة بنا إلى ذكره، فاذكره أنت إنْ شئت كما ألحقته. ورأيناك لما وصلت إلى قوله[١]:

[من الخفيف]

هـــذه الشّهـــب خلتُهـــا شبـــكَ الـــدهـــر لهـــا فـــوق أهـــلِ إلمـــاءُ

فإنَّك وجدت الباء من «باز» قد سقطت عليها نقطة فتوهمت أنا رويناه: «ناز» ـ بالنون ـ فكتبت في الطرَّة: «صوابه بباز». فهلاّ قرأت الشرحَ فوجدت كلامنا على البازي، وتمثيلنا هذا البيت بقول تميم[٢] بن المعز؟:

وكـــأنَّ الصبـــاحَ فـــي الأفـــقِ بـــازٍ والـــدُّجـــى بيـــنَ مخلبيـــه غـــراب[٣]

ما هذا الحيف ـ أبقاك الله ـ في الحكم، والميل إلى حيِّز الظّلم؟ أظننتنا جهّالاً بهذا القدر، كما توهمت أننا نكسر وزن الشعر؟ هلاّ دلّك كتابنا على أنَّ لنا حظاً من كثير من العلوم، وتصرّفاً في الحديث منها والقديم؟ وقد ضمّنا معنى بيت المعري في شعر صنعناه، أيام الصّبا، وقبل أن يعظنا واعظ النّهي، ونحن نستغفر الله منه، ونسأله التجاوز عنه، وهو:

[من الكامل]

يـــا ربَّ ليـــلٍ قـــد هتكـــتُ حجَـــابَـــهُ بمـــدامـــةٍ وقَـــادةٍ كـــالكـــوكـــبِ

يسعـــى بهـــا أَحْـــوى الجفـــون كـــأنَّهـــا مـــنْ خـــدّه ورضـــاب فيـــهِ الأشنـــبِ[٤]

بـــدران: بـــدر قـــد أمنـــت غـــروبَـــهُ يسْعـــى ببـــدرٍ جـــانـــح للمغـــرب

فـــإذا نعمـــتَ بـــرشـــف بـــدرٍ غـــاربٍ فـــانعـــمْ بـــرشفـــة طـــالـــعٍ لـــم يغـــربِ

حتَّـــى تـــرى زهـــر النجـــوم كـــأنّهـــا حَـــوْلَ المجـــرَّة ربـــرب فـــي مشـــربِ[٥]

والليـــل منعمـــزٌ يطيـــرُ غُـــرَابُـــه والصبـــحُ يطـــردُه ببـــازٍ أشهـــبِ

= بياضها بسواد.

(١) اللزوميات ١: ٤٧، ب١٠ ـ الإلماء: أتن يلقي الصياد شبكته على صيده.

(٢) هو تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن محمد المهدي، ولد في تونس سنة ٣٢٧هـ، توفي سنة ٣٧٥ عن ثمانية وثلاثين عاماً. مقدمة ديوانه بتحقيق محمد حسن الأعظمي.

(٣) البيت في ديوانه: ٧٠.

(٤) الأحوى: الحُوَّة: حمرة ضاربة إلى السواد. والأشنب: برد الفم والأسنان، ويقال: الشنب: حداثة الأسنان وطراءتها، وقيل: صفاؤها ونقاؤها.

(٥) الربرب: القطيع من الظباء.

ورأينالك ـ أبقاك الله ـ تصحيفاً طريفاً في قول المعري[١]: [من الطويل]

تحلّي بأسنى الحلي واحتلبي الغنى ... فأفضلُ مِنْ أمثالِك النَّفَر الشُّعْثُ[٢]

يسيرون بالأقدام في سُبل الهدى ... إلى الله حَزْنٌ ما توطَّأن أو وَعْثُ[٣]

وما في يدٍ قلبٌ، ولا أسوُقٍ بُراً ... ولا مفرقٍ تاجٌ ولا أذنٍ رَعْثُ[٤]

ثم كتبت عليه: «هذا وَهْم»، وصوابه: «واجتنى الغنا». وكتبت على الحَلْي: «الخلق»، وكتبت: المعنى مفهوم، وعليه يدلُّ ما بعده وخاصة الثالث من الأبيات. وليس لذكر الخلق واجتناب الغنى مدخل في هذا الشعر، ولا عُلمَ كيف قام ببالك أن البيت الثالث يدل على استحالة ذكر التحلي بالحلي واجتلاب الغنى في البيت الأول؟ إلا أن تكون توهّمت أنه نقا القلب و«البُرَا» والتاج، والرعث عن المرأة المخاطبة، وليس كذلك، وإنما نعني هذه الأصناف من الحلي عن النفر الشعث، وأراد بهم الحُجّاج فقال: الحُجّاج الشُّعْثُ الذين لا يستعملون شيئاً من أصناف الحلي زهادةً في الدنيا، وانقطاعاً إلى الله ـ تعالى ـ أفضل منك ومن أمثالك ممَّن تحلّى بالحلي، ويجتلب أخلاق الغنى ويظن الفضل في ذلك.

وكذلك فعلت في قول المعري[٥]: [من البسيط]

يا راعيَ المِصْرِ ما سوّمتَ في دَعةٍ ... وعِرْسُك الشاةُ فاحذر جارك الذيبا

كتبت مكان في «دعةٍ» في «رغدٍ»، وليس للرَّغَد هنا مدخل، إنما هو تصحيف تصحّف من الدعة. ومعنى الشعر يقتضي «الدّعة»، لأنه يقول: يا راعي! أراك ترسل شاتك وتظن أنك في أمن من الذئاب، فكن على حذرٍ وخوفٍ لا على دعةٍ وأمنٍ، فإنَّ جارك ذئب يأكلها إن كان منك لها تسيّب. وأما قول المعري[٦]: [من الطويل]

هَجَرَ العراقَ تطرّباً وتغرّباً ... ليفوزَ مِنْ سِمْط العُلاَ بِغُرابِهِ

فإني رأيتك قد أنكرت كسر (الغين) من «غرابِ» وما فسّرناه، وكتبت في الطرّة: هو ضرب من الحلي: فليتك إذْ كتبت هذا زدت أنه مضموم الغين فيسلم اعتراضك من الخطأ. ولكنك شرحت «الغِراب» المكسور الغين بأنه نوع من الحلي فلم يقم اعتراضك بخطئك. وهذا النوع من الحلي إنما يقال له: عُراب ـ مضموم العين ـ وصورته صورة «الغراب» كما قالوا لنوعٍ منه: «أرنب» لكونه على شكل الأرنب، ولنوع منه: «نخلٌ» لكونه على شكل النخل.

---

(١) اللزوميات١: ١٨٦، ب٣ـ٥.

(٢) الشُّعث: مفردها أشعث وهو الذي لم يتعهد شعره بالدهن، والمراد هنا: الحجاج المحرمون للحج.

(٣) الحزن: ما غلظ من الأرض. الوعث: الليِّنُ من الأرض حتى تسوخ فيه القدم.

(٤) القُلب: الأساور. الأسوق: جمع ساق. والرَّعث: القرط.

(٥) اللزوميات ١: ١٠٢.

(٦) شروح سقط الزند: ق٢٨، ب١٣، ج٢: ٧٢٣ ـ السمط: ما يعلّق من القلادة على الصدر. والغراب: جمع غريب أو غريبة.

قال رؤبة[(١)]: [من مشطور الرجز]

وعُلِّقتْ منْ أرنَبٍ ونَخْلِ

وقد أولع الناس بروايته مضموم العين وعند نافيه رواية صرفتنا عن ذلك: أخبرنا أبو الفضل البغدادي[(٢)] شيخنا في شعر أبي العلاء، قال: جرى بيني وبين رجل ببغداد تشاجر في هذا البيت فضم «الغين» وأبيت أنا إلا كسرها، وقلت له: ليس للغرابِ الذي يراد به الحلي من الفضيلة ما يوجب تخصيصه بالذكر إنما الوجه بـ«غرابه» ـ مكسور الغين ـ أي أنه فاز بالغريب من الحلي الذي لا نظير له فيكون جمع غريب أو غريبة، وهو مدح لأنه يدخل في كل حلي نفيس. فذكر أنه بالضم، رواه عن المعري. قال: فلما لقيت المعري أخبرته بما جرى فقال: أنا مسرور لحسن فهمك، بورك فيك! الكسر أفخم للمعنى، وأمدح للغنى فلا تروه عني إلا هكذا.

ورأيناك لما انتهيت إلى قول المعري[(٣)]: [من الطويل]

وإنْ يكنْ وادينا منَ الشعرِ واحِداً فغيرُ خَفِيٍّ أثْلُه مِنْ ثُمَامِه

أنكرت «الأَثْل» وعوّضتَ منه «النبتَ»، وهذا تصحيف؛ لأن الثُّمام نوع من النبت. وإنما كان يصحّ ما ذكرت لو كان النبت اسماً واقعاً على غير الثُّمام. وإنَّما يستقيم الذي قصده بذكر «الأثل»؛ لأن «الأثل» شجرٌ قوي، و«الثُّمام» شجر ضعيف.

وكذلك لما وصلت إلى قول المعري[(٤)]: [من الرجز]

متى يقولُ صاحبي لصَّاحِبي بدا الظلامُ موجِزاً فأوْجِزِ[(٥)]

ذكرت أنَّ الصوابَ «بدا الصباح»، وهو خطأ؛ لأنه قد ذكر الصباح في البيت الذي بعده، وهو قوله[(٦)]: [من الرجز]

ويطلعُ الصُّبْحُ وفوقَ جفنهِ منَ النجوم حلية لم تُخرزِ

وإنما أراد إشراف الظلام وأخذه في الانحقاز، فلذلك استعار له لفظة الإيجاز. ونحوٌ من

---

(١) ديوان: ق٤٩، ب١٠٠، ص: ١٣٠.

(٢) وهو محمد بن أبي سعد بن أحمد بن الحسن بن علي البغدادي: من بيت علم وإسناد، كان شيخ أصبهان، ولد سنة ٤٢٣هـ، وتوفي سنة٤٨٠هـ في بغداد. ترجمته في: المنتظم ٩: ٤٢، وسير أعلام النبلاء ١٨: ٥٣٢.

(٣) شروح سقط الزند: ق١٥، ب٣، ج٢: ٤٧٤، والرواية فيه: «.... نبته من ثُمامه». الأَثل: شجر قوي، وقيل: يقال له الطرفاء. والثُّمام: شجر ضعيف يسمّى الحَلفاء.

(٤) شروح سقط الزند ٢: ٤٧٥.

(٥) شروح سقط الزند: ق١٣، ب٩، ج١: ٤٢٠، وروايته: «.... بدا الصباح.....». قال البطليوسي: «إنما قال صاحبي لصاحبي، لأن العبارة جرت من الشعراء بأنْ يصف الشاعر منهم أن له صاحبين». شروح سقط الزند١: ٤٢٠.

(٦) شروح سقط الزند: ق١٣، ب١٠، ج١: ٤٢٠ وروايته:

ويطلع الصبحُ وفوقَ جَفْنه منَ النُّجوم حيلة لم تُخرَزِ

قوله في قصيدة أخرى[١]: [من الطويل]

وقَـد أغتَـدي والليـلُ يبكـي تـأسّفـاً ... علـى نفسِـه والنجمُ فـي الغـرب مـائِـلُ

فوصفه الليل بالبكاء على نفسه نظير وصفه بالإيجاز.

وكذلك لما وصلت إلى قوله[٢]: [من الطويل]

عَـنْ عَـالـجٍ بـاتـوا بـرَمْلـةِ عـالـجٍ ... فـي رَبْـوتـي عَـوْدٍ كظَهْـر العَـالـجِ

ذكرت أنك رويته عن شيخك أبي زكريا: «ربوتي عورٍ» والأمر في هذا أمم؛ لأنه يحتمل الوجهين وليس كالتصحيفات المتقدِّمة.

وما روينا عن شيخنا أبي الفضل البغدادي وعبد الدائم القيرواني: «إلا ربوتي عَوْدٍ»، والعَوْدُ: الطريق القديم، شبّه بالعَوْد من الرجال والإبل وهو الكبير المسنّ، قال الراجز[٣]:

[من مشطور الرجز]

عَـوْدٌ علـى عَـوْدٍ علـى عَـوْدٍ خَلَـقْ

أي: شيخ مسن على جمل مسنٍّ على طريق قديم. ووصف الطريق بالسن إشارة إلى قدمه وبلاه من كثرة سلوك السالكين له، وما الذي أفدْتنا ـ أعزَّكَ اللهُ ـ أن كتبت على قول المعري حين وصلت إليه[٤]: [من الطويل]

بـأشنـبَ مغسـولِ الغـريـزة مُقْسِـمٌ ... لسـائِفِـه إن القَـسِيمـة مِتفـالُ

إن معطاراً أشبه من «مَغْسول». ونحن قلنا في شرحه: إن معطاراً أحسن لما فيه من الطباق، وهلا تأملته فلا تحتاج إلى تكلّف ما كتبته، إنما يستدرك على ما غلط فيه أو غفل عن ذكره.

وكذلك لمّا وصَلْتَ إلى قوله[٥]: [من الطويل]

طـويـتَ الصِّبـا طـيّ السجـلّ وزادنـي ... زمـان لـه بـالشيـب حُكـمٌ وإسجـالُ

أنكرت (زادني) ـ بالدال ـ، وكتبت (وزارني) ـ بالراء ـ وما نعرفه إلا «زاد» ـ بالدال ـ

(١) شروح سقط الزند: ق١٦، ب٢٥، ج٢: ٥٣٨. قال البطليوسي: «وصفه الليل بأنه يبكي على نفسه تأسفاً من بديع اللاستعارة ومليح الإيماء والإشارة وذلك أن الليل لما كان قد أشرف على الزوال والنهار قد أخذ في الإقبال شبّه بالذي أشرف على حتفه فهو يبكي على نفسه». شروح سقط الزند٢: ٥٣٩.

(٢) اللزوميات ق٢٩، ب١، ج١: ٢٠٥، ورواية البيت: «عن لاعجٍ... الفالج» ـ اللاعج الحزن والوجد. والعالج: رملة بين ديار بني كلب. العَوْد: الطريق القديم. الفالج: الجمل ذو السنامين.

(٣) الرجز في شروح سقط الزند ٣: ١١٧٨، واللزوميات ٢: ٢٠٥، واللسان (عود).

(٤) شروح سقط الزند: ق٥٩، ب٢٤، ج٣: ١٢٣٧، والمتفال: ضد المعطار، وهي التي لا تستعمل الطيب. والقسيمة: جَوْنة العطر. والأشنب: فمها، وهو عطر بالطبع. والغريزة الطيب المستعمل. السائف: الشامّ، وساف الشيْ إذا شمَّه.

(٥) شروح سقط الزند: ٥٩، ب٣، ج٣: ١٢٥٢، وروايته: «... وزارني...». الإسْجال: مصدر أسجل إذا عقد سجلاً. السجلّ: الكتاب، والكاتب أيضاً.

ومعناه صحيح. إنما أراد به طوى ثوبه صباه في حال الصغر، وزاده رغبة في طيّه الشيب الوارد عليه عند الكبر[١] فعفَّ في حالتي صغره وكبره وامتنع من نيل لذاته ووطره، وهذا معنى حسن؛ لأن النسك المحمود أن يعفَّ الإنسان[٢] في شبابه جديد ومحبوبه مطاوعٌ له على ما يريد، وذكر هذا في موضع آخر فقال[٣]: [من الطويل]

تشكَّيت بعدَ الأربعينَ ضرورةً ... ولم يبقَ إلا أن تقوم الصوارخُ
وكيف ترجّى أنْ تُثابَ وإنّما ... يفضَّل نُسْكُ المرءِ والمرءُ شارخُ[٤]

وأما كونها بمعنى العوض والبدل، فكقول طرفة[٥]: [من الطويل]

بما قدْ أرى الحيّ الجميعَ بغبطةٍ ... إذ الحيُّ حيٌّ والحلولُ حلولُ

وقول الآخر[٦]: [من الخفيف]

فلئن كنتَ لا تحير جواباً ... لما قَدْ تَرى وأنتَ خطيبُ

وأما تضمُّن بيت أبي العلاء لمعنى الجزاء؛ فوجهه أنْ يكون من المقلوب، وقد أراد أنه جعل لها الحرير خلالاً لما يخضبها نجيعاً؛ أي: يجيب إليها مجازاة على اختضابها بالدم في محاربة أعدائه.

والقلب كثير في الكلام المنثور والشعر المنظوم، كقولهم: أدخلت القَلنسوة في رأسي، وأدخلت الخاتم في إصبعي. وإنما الوجه: أدخلت رأسي في القلنسوة، وأصبعي في الخاتم. وكذلك يقولون: أعطي درهمٌ زيداً، والوجه: أعطي زيدٌ درهماً. ومنه قول الفرزدق[٧]: [من الطويل]

غداةَ أحلَّت لابن أَصْرم طعنةٌ ... حصينٌ عبيطات السنائف والخَمْرُ

وقد جاء المعري بهذا المعنى غير مقلوب في قصيدة أخرى: [من الطويل]

غذاهنَّ محمرُّ النجيعِ قوارحاً ... بما قَدْ غَذَاهنَّ الضريبُ مِهَارا

كذلك وقع في بعض نسخ «سقط الزند»، وفي بعضها «كما». وقد يمكن أن يظن بيت المعري غير مقلوب فيكون قد أراد به الخير يختصّ بالنجيع في مرضاته مكافأة له على إحسانه إليها، ونحو قول أبي فراس الحمداني[٨]: [من الطويل]

---

(١) الكلمة غير واضحة وهي منسجمة مع السياق.
(٢) الكلمة مطموسة في الأصل ويقتضيها السياق.
(٣) ديوان أبي فراس: ١١٩.
(٤) الشارخ: الشّابّ.
(٥) ديوان طرفة: ٨٢.
(٦) البيت مجهول القائل وهو في شروح سقط الزند ١: ٦١.
(٧) ديوان الفرزدق ١: ٢٨٣.
(٨) ديوان أبي فراس: ١١٩.

عفافُكَ عَيٌّ إنما عفَّةُ الفتى إذا عفَّ عن لذَّاته وهو قادرُ

وقال أبو الطيب المتنبي[(١)]:

يُردّ يداً عن ثوبها وهو قادرٌ ويعصي الهوى في طيفها وهو راقِدُ

ورأيناك ـ أعزّك الله ـ لما انتهى بك النظر إلى قوله[(٢)]: [من الطويل]

فذكَّرني بدرُ السماوة بادناً شفىً لاح من بدر السماوة[(٣)] بالِ

أنكرت «السماوة» الثانية وكتبت: «السماءة» ـ بالهمز ـ فلمَ أنكرتها علينا؟ أحسبت أنّها لا تقال أم حسبت أنها أليق بالبيت؟ وكلا الأمرين لنا الظهور عليك؛ لأن أهل اللغة حكوا أنه يقال: سماءٌ وسَمَاءَةٌ ـ بالهمز ـ وسَمَاوة بالواو، وسَمَاة على وزن «قَطَاة». فمن قال: سَمَاءة فهمز بناها على سماء كما هُمزت السماء. ومن قال: سماوة ـ بالواو ـ بناها على الفعل الذي هو سما يسمو. وهذا كما يقال: امرأة سقَّاءة وسقَّاية فمن همز بناها على سقَّاء ومن لم يهمز بناها على سقيت، فهذا ما فيها من طريق اللغة.

وأما من طريق الترجيح بين اللفظتين؛ فإن السماوة أحسن لوجهين، أحدهما: أنّه أفصحُ اللغتين. لأنّها أكثرُ استعمالاً، وأوسعُ مجالاً. ويدلُّ على ذلك أنهم قالوا في الجمع: سماوات، وبذلك قرأ القرّاء ولا يكادون يقولون: سماءات.

والوجه الثاني: أنها أليق بالبيت لما تقدّم في صدره من ذكر السماوة، فأفسدت على الرجل التجنيس الذي جرى إليه، وحام فكره عليه. فما هذا الخلاف والعناد؟! وأين النظر الحسن والانتقاد؟!

ورأيناك ـ أعزّك الله ـ لمّا وصلت إلى قول المعري[(٤)]: [من الوافر]

ذكيُّ[(٥)] القلب يخضِبها نجيعاً بما جعل الحريرَ لها خِلالا

قرأت شرحنا للبيت قراءة منتقدة، وتتبعته تتبع طالب للعثرات [. . . . . .[(٦)]] فوجدتنا قد

(١) ديوان المتنبي ١: ٣٩٠. وهو من قصيدة يمدح بها سيف الدولة الحمداني مطلعها:

عواذل ذات الخال فيَّ حواسد وإن ضجيع الخَود مني لماجدُ

وقد علّق ابن جني البيت بقوله: لو قدر على أن يقول موضع قادر: يقظان أو مستيقظ لكان أجود في الصناعة، ولكنه لم يقدر. وردّ أبو الفضل العروضي على ابن جني هذا النقد فقال: «وهذا النقد غير جيد؛ وذلك أنه لو قال: يقظان أو ساهر لم يزد على المعنى أنه تركها صلف نفس وحفظ مروءة لا عن عجز ورهبة. . .». نقلاً عن حاشية ٣ ج١ ص٣٩٠ من شرح البرقوقي.

(٢) شروح سقط الزند: ق٥٨، ج٣: ١١٩٧، وروايته: «السماءة». والسماوة: يقال لها سماوة كلب. وبدر السماوة: المحبوبة، والسماءة: السماء. وشفا الشيْ: بقيّته. البادن: السمين العبل الجسم.

(٣) قال الخوارزمي: «قال الفراء: السماء كأنها جمع سماوة وسماءة».

(٤) شروح سقط الزند: ق١، ب٢٥، ج١: ٦٠، وهو كذلك في ٢: ٦٤٠.

(٥) ذكيّ القلب: متوقد القلب. النجيع: الدم الطري. الخِلال: يكون للواحد والجمع.

(٦) طمس لم أستطع قراءته.

قلنا: إنَّ هذه الباء تسمّى باء الجزاء وباء البدل وباء العِوض. فكتبت في طرَّة الكتاب متوهّماً أنّك ظفرت بثمرة الغراب: أين[١] الجزاء؟ وإنّما المعنى بأنه أكرمها بأنْ صيَّر جلالها حريراً استجاز أنْ يتبعها في الحرب حتى تختضب بالدم.

وقد أخطأت ـ أبقاك الله ـ من وجهتين: أحدهما: أنّا لم نرد أن هذه الباءَ تكون بمعنى الجزاء في كل موضع[٢]، وإنما أردنا أن نبين مواضعها من كلام العرب[٣].

والثاني: أن هذا البيت لا يستنكر أن يكون فيه معنى الجزاء مضمناً على وجه تذكره. أما كون هذه الباء بمعنى الجزاء فكقول العرب: «هذه بتلك والبادئ أظلم»[٤]. وقول الله تعالى: ﴿ذلكَ بما قدَّمت يداك﴾ [الحج ٢٢: ١٠]. وكقولهم في المثل السائر: «يومٌ بيوم الخفض المجوّر»[٥].

فيكون كقول مالك[٦] بن نويرة[٧]: [من الطويل]

جزاني دوائي ذو الخمارِ وَصْنعتي ... بما بات أطواءَ بنيّ الأصاغرُ

ورأينك ـ أكرمك الله ـ لما انتهيت بالقراءة إلى قول المعري:

وما زالت الحُمُر الرواهنُ للقِرى ... تكشِّف غُمَّاتِ الوجوهِ الروامي[٨]

كتبت في الطرّة: «الصواب: الرواميُ». وهذا لفظة وجدناها مفسَّرة عن المعري أنها الثابتة المقيمة كما قال الشاعر: [من مشطور الرجز]

والماء والخبز لهنَ راهنُ[٩]

وقوله: «للقرى» يبيِّن ذلك، أي أنّها محبوسة للقرى وقف عليه، كما قال الشاعر[١٠]:

---

(١) طمس بعض الكلمة ولعل الصواب ما أثبته!.

(٢) طمس بعض الكلمة ولعل الصواب ما أثبته!.

(٣) كتبت هذه الكلمة في النسخة الخطية على نحو تقرأ عليه: «الغراء»، ولست أجد لها مناسبة هنا.

(٤) ومنه قول أبي سفيان عند هزيمة المسلمين في أحد: «يوم بيوم بدر».

(٥) مثل أول من قاله الفرزدق. وهو في مجمع الأمثال ٢: ٤٠١ رقم ٤٥٨٩، والمستقصى ٢: ٣٨٨ رقم ١٤٢٧، وتتمته: «وهذه بتلك فهل جزيتك يا عمرو؟» وبرقم ١٤٢٨ وتتمته: «والبادي أظلم»، وهما مثلان يضربان في المجازاة، وفي ديوان طرفة: «هذا بذلك»، وفي شروح سقط الزند ١: ٦٠، ٢: ٦٤٠: «هذا بذاك».

(٦) شروح سقط الزند: ق١٩، ب٣٣، ج١: ٦٤٠، وروايته: «... الحليب...». والضريب: اللبن الذي يخلط حامضه بحلوه، وثخينه برقيقه.

(٧) البيت لمالك بن نويرة، وهو في شعره: ٦٩ وتخريجه ثمة.

(٨) طمس جزء من الكلمة.

(٩) اللسان (رهن)، وروايته:

«الخبز واللحم لهن راهنٌ ... وقهوةٌ راووقها ساكبُ

وطعام راهن: مقيم.

(١٠) لم أقف عليه.

[من الطويل]

حَبَسْنا فلمْ تشرحْ ـ لكيلا يلومَنا لنفريه صبراً ـ معوَّدة الحبْسِ

وقول الآخر[١]: [من الطويل]

وأموالنا وقفٌ على مبتغى القِرى رواهن للمستنيخين وللجُمَّم

والمستنيخون: الذين ينيخون بالليل إذا لم يعلموا أين الحي . . . . الكلاب فيها فيهتموا بها. والجُمَّم: جمع جمَّة، وهم القوم يسألون العون في الديات.

ولمَّا وصلت إلى قول المعري[٢]: [من الوافر]

زمانٌ لا يُنالُ بُنُوهُ خَيْراً إذا لم يخلطوه بالتمني

أنكرت «يخلطوه» وكتبتَ «يلحظوه» و«الخِلْط» بهذا البيت أليق من «اللحظ»؛ لأن التمني إنَّما هو «الكذب» فأراد أن الزمان لا يصل بنوه إلى الخير الذي يؤملونه حتى يمزجو الباطل بالحق، ويخلطوا الكذب بالصدق. وقد أوضح المعريّ هذا المعنى في موضع آخر من شعره فقال[٣]: [من الوافر]

تعالى الله فهْو بنا خبيرٌ قد اضطُرت إلى الكذبِ العقولُ

تقولُ على المجاز وقدْ علمنا بأنَّ القولُ ليسَ كما تقولُ

وقال آخر[٤]: [من الطويل]

تخلَّق مع الأقوام إن رمت ودَّهم بصدق وكذبٍ خفية وعلانية

فإنَّ منَ الأقوام مَنْ إن صدقته طوى لك حقداً أو رماك بداهية

ورأيناك لما انتهيت إلى قول المعري[٥]: [من البسيط]

وقد[٦] تبيَّن قدري أنَّ معرفتي أبا الرضا سوف يرضيني عن القدرِ

ذكرت أن شيخك أبا زكريا إنما قرأه على المعري: «مَنْ تعلمين سترضيني عن القدر». ومثل هذا ـ أبقاك الله ـ لا يعدّ خطأ، إنما هو لفظ قاله أبو العلاء ثم غيَّره، كما غيَّر كنية الممدوح الذي مدحه[٧]:

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) اللزوميات، ق٨٦، ب١٢، ج٢: ٣٨٥، وروايته: «. . . . . إذا لم يلحظوه بالتمني».

(٣) اللزوميات، ق٢٣، ب١ـ٢، ج٢: ١٨٥.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) شروح سقط الزند، ق٨، ج١: ١٣٥، ب: ٢٣، ورواية عجزه: «. . . من تعلمين سترضيني عن القدرِ».

(٦) الكلمة مطموسة في المخطوطة واستكملت من السقط.

(٧) شروح سقط الزند: ق٢٧، ب٢٩، ج٢: ٧١١. ابن فلان: مجاز يراد به المصاحبة الملازمة. والعرب تقول: فلانٌ ابن الليل، وأخو الحرب، والمراد أنه ملازم له غير منفك عنه. وقوله أبا فلان: كناية عن الممدوح بهذا الشعر. شروح سقط الزند٢: ٧١٢.

أبـــا فـــلانٍ دعـــاك الله مقتـــدراً أبـــا المكـــارم وابـــنَ الصّـــارم الخَلِـــسِ

وكذلك فعل بأشياء كثيرة من شعره في آخر عمره. فمنها أشياء أسقطها بالجملة، ومنها ما ذكر بعضه وحذف بعضه. ومنها ما غيَّر لفظه إلى لفظ آخر استقباحاً له، كقوله في رثاء أبيه:

[من الطويل]

ورآهـــا سليـــلُ الطيـــن والشيـــبُ شـــامـــلٌ لهـــا بـــالثـــريـــا والسِّمـــاكيـــنِ والـــوَزْنِ

زمـــانَ تـــولَّـــتْ وأد حـــوّاء بنتهـــا وكـــم وأدتْ مـــن قبـــلِ حـــواءَ مـــن قَـــرْنِ

هكذا قال أولاً ـ فيما أخبرنا أبو الفضل البغدادي، ثم عوّض منه: «في إثر حوّاء».

ورأيناك أيضاً لما انتهيت إلى قوله[١]: [من البسيط]

بـــوقـــتٍ لا يطيـــقُ الليـــثُ فيـــه مســـاورةً، ولا الأيـــمُ اختيـــالا

ذكرت أنك رويته عن شيخك أبي زكريا: «ولا السيِّد». وما ثبت في أصلنا الذي رويناه إلا «الأيمُ». ومثل هذا الخلاف لا يلتفت إليه.

ورأيناك لما وصلت بالتفح والنظر إلى قوله[٢]: [من الطويل]

والعَيْـش أَيْـنٌ وفـي مثـوى امـرىء دَعَـةٌ والله فَـرْدٌ وشِـرْبُ المـوتِ مشتَـرَكُ

ذكرت أن الصواب: «مَيْن» لا «أين». وهذا بيت ذكرناه في بعض كتب الشيخ كما ذكرت، ووجدناه في بعضها كما ذكرنا فاخترت «الأيْن» على «الميْن» ورأيناه أليق بذكر المثوى والدّعة. وإنما معناه أنَّ عيش الفتى كأنه وطنٌ له قد تودّع فيه وسكن كأنه من فراقه قد أمن ولم يفكّر في أنَّ كل ساكن في منزل فلا بد له أنْ يستقلّ عنه. أنّ شربَ الموت مشترك بين الخلق لا بدَّ لهم منه.

وهذا معنى نظر فيه أبو الطيب المتنبي[٣]: [من الطويل]

ذرِ النفـــسِ تـــأخـــذْ وسْعهـــا قبـــلَ بينِهـــا فمفتـــرقِ جـــاران دارهمـــا العُمْـــرُ

فجعل أبو العلاء العيش للإنسان وطناً كما جعل المتنبي العمر داراً، فلا يقال في هذا تصحيف وتحته معنى شريف. والمَيْن أولى بأن يكون صحيحاً؛ لأنَّ المثوى والدَّعة لا يلتئمان بالمين كالتئامهما بـ «الأين».

ورأيناك ـ أبقاك الله ـ قلت في قول المعري[٤]: [من الوافر]

عَفـــا أثـــري الـــزمـــان ومـــا أغنَّـــتْ ضِبـــاعٌ فـــي المحلَّـــة تعتفينـــي

إنه أراد: ضباع في منزلي تأخذ عَفْوي ولم ترضَ قولنا: إنَّ معناه: «تقصد». وهذا خطأ من وجهين؛ أحدهما: أنّه لا يقال: اعتفيتُ الرجل إذا أخذتَ عَفْوه، واعتفيتُه: إذا قصدته. والخطأ

---

(١) شروح سقط الزند، السفر الثاني، القسم الأول، ق، ب٧٩، ج١: ١١١. والأيم: الحيّة، وكذلك الأيْن. والمساورة: المواثبة.

(٢) اللزوميات، ق١١، ب٨، ج٢: ١٥٠.

(٣) ديوان المتنبي ٢: ٢٥٢.

(٤) اللزوميات، ق٨٩، ب٥، ج١: ٣٨٩.

الثاني: أن هذا التفسير لا يوافق معنى الشعر؛ لأنَّ المعري إنَّما أراد أنه فرّ من الناس واستتر في منزله، وإذا همْ - مع ذلك - واطئون إليه، مقتحمون عليه. ويدل على ذلك قوله قبل هذا البيت[١]: [من الوافر]

قد استخفيتُ كالجسدِ الموارَى ولكنَّ الطوائف تختفيني

ومعنى «تختفيني»: تستخرجني، فكيف توهَّمت أنه أراد ضباعاً في منزله تأخذ عَفْوه؟ وأين النقد والحسّ والزمن الزهق؟! هيهات ضاع ضيعة هبود ونام نومة عبود!

وهكذا رأيناك قد قلت في قوله: [من الطويل]

لقد مسختْ قلبي وفاتُك طائراً فأقسم ألا يستكنّ على وَكْنِ

أن الصواب: «لقدْ مسحتْ مني»، وإنما هو تصحيف نصحَّف، ولفظ تحرَّف. إنما أراد الشاعر أن قلبه لا يستقر خفقانه، كما قال عروة بن حزام[٢]: [من الطويل]

كأنَّ قطاةً عُلِّقتْ بجَناحها على كَبدي منْ شدَّة الخفقانِ

وقال المجنون[٣]: [من الطويل]

وداعٍ دعا إذْ نحن بالخِيف من مِني فهيَّج أحزان الفؤاد وما يدري

دعا باسم ليلى غيرها فكأنَّما أطار بليلى طائراً كانَ في صدري

وهذا كثير في الشعر جداً. ومنه قول بشار بن برد[٤]: [من الوافر]

كأن فؤاده كرة تتردَّى حذار البين لو نفع الحذارُ

ورأيناك لما وصلت بالقراءة والتصفّح إلى قوله[٥]: [من الكامل]

فإذا رأيت وليداً والنَّوى كثبٌ يومَ القيامة لم أعدِمْه تبكيتا

ذكرت أن رواية شيخك «قذف». وهذا من الألفاظ التي ذكر أن المعري غيَّرها في آخر عمره لما فيها من قبيح التأويل، والقال والقيل، لأنَّ الكثيب: القرْب، وهو الشيء القريب أيضاً، والقَذَف: ضده؛ فإذا قال: والنَّوى كثب؛ فإن فيه تقريب الأمر، وأنه مقامه اليوم أو الغد. وإذا قال قذف، ففيه استبعاد ليوم القيامة.

---

(١) اللزوميات، ٢: ٣٨٩، والرواية فيه: «ولكن الطوارق تختفيني».

(٢) ديوان عروة بن حزام: ١٣، ٣٢، وتاريخ ابن عساكر ٤٧: ٢٢٨.

(٣) ديوان مجنون ليلى: ١٦٢، ومسالك الأبصار ٩: ١٤٢.

(٤) ديوان بشار بن برد٣: ٢٢٤، وروايته:

كأن فؤاده يترى حذاراً حذار.....

وانظر اختلافات الرواية في هوامش ص٢٢٤.

(٥) سقط الزند، السفر الثاني، القسم الرابع، ق: ٦٧، ب: ٤٦، ص: ١٦٠٢، وروايته:

«فإن لقيت..... قذف....» - التبكيت: قطع الإنسان بالاحتجاج والمناظرة حتى لا يقدر على الجواب.

ورأيناك لما وصلت إلى قوله[١]: [من البسيط]

لا يـرقُـبُ المـوتَ مَـنْ كـان امـرأً فطِنـاً فـإنَّ فـي العيـش أرزاءً وأحـداثـا؟

وجدتنا قد فسَّرناه ما يطابق غَرَضه وفحواه فقلنا: يقول: لا يحبُّ العيشَ ويكره الموت إلا رجل لا يفهم حقائق الأمور. وأما مَنْ فهم الحقائق فإنه يرى أن الموت خير له من الحياة، وهو نحو قوله - عزَّ وجلّ -: ﴿يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ [الجمعة ٦٢: ٥]. فأخبر أن أولياء الله يحبون الموت ويتمنَّونه، فكتبت في الطرّة: هذا وهم قبيح، هذه معجزة لرسول الله - ﷺ - ذكرها ليهود فما منهم أحد تجرَّأ أن يتمنَّى الموت، ولو تمنَّوه أو تمنَّاه أحدهم لمات، وهذا اعتراض طريف. متى أنكرنا أنه معجزة للنبي - ﷺ - وما الذي أدخل ذكر المعجزة فيما نحن بسبيله؟

وإنما قلنا: إنّ في ضمن هذا الكلام إخباراً بأن أولياء الله يحبون لقاءه، وهذا ما لا ينكره مسلم. ولو لم تكن هذه صفة من صفات أولياء الله لما قامت بهذا حجة عليهم، ولكنه لما ادعوا أنهم أولياء الله قيل لهم: فتمنَّوا الموت كمن يتمنونه لتصحّ دعواكم. ولكن من يعتقد أن النفس عرض تنحلّ بانحلال الأجسام لا يتمنى لقاء الحِمَام، وإنما يتمنى لقاءه من هو واثق ببقاء نفسه بعد هلاك جسمه، وهو خفيف الظهر والآثام والأوزار؛ فإنه حينئذ يقول ما قاله بعض الفضلاء الأبرار[٢]: [من الطويل]

جـزى الله عنّـا المـوت خيـراً فـإنّـه أبـرُّ بنـا مـن كـل بـرٍّ وأرْأفُ

يعجِّـل تخليـص النفـوس مـن الأذى ويـدنـي مـن الـدار التـي هـي أشـرفُ

وفي قوله تعالى: ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدَّمت أيديهم﴾ [البقرة ٢: ٩٥] نبأ كافٍ، وإيضاحَ لهذا شافٍ.

فإن قيل: فكيف كره الأنبياء والفضلاء الموتَ مع معرفتهم بفضيلة الدار الآخرة، وما يصيرون إليه من الدرجات العالية؟ فالجواب: أنَّ كراهيتهم للموت ليستْ من أجل[٣] رغبتهم في الدنيا، وإنما ذلك لأمرين، أحدهما: ما يلاقون من غُصَصِ الموت[٤] وألمه وسكراته وغُمَمه. والثاني: أن في بقائهم صلاحاً للعالم، وكفاً لهم عن التعدي والتظالم، فهم يحبون أنّ يمد لهم في البقاء ليستكثروا من[٥] الأعمال، ويهتدي بهم أهل الزيغ والضلال فتكثر حسناتهم وتعلو درجاتهم[٦].

---

(١) اللزوميات، ق٧، ب١، ج١: ١٨٨.

(٢) لم أعرف قائلها.

(٣) الكلمات مطموسة واجتهدت في قراءتها وتبيّنها.

(٤) الكلمات مطموسة واجتهدت في قراءتها وتبيّنها.

(٥) الكلمات مطموسة واجتهدت في قراءتها وتبيّنها.

(٦) الكلمات مطموسة واجتهدت في قراءتها وتبيّنها.

وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لأنْ يهديَ الله ـ تعالى ـ رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس»[١].

ولما وصلت إلى قوله[٢]: [من الكامل]

لـم يستـريحـوا مـن شـرورِ زمـانهـم إلا بنقلهـم إلـى الأحـداثِ

كتبت في الطرّة: «ديارهم أشبه». فليت شعري! فمتى صارت نسبة الشرّ إلى الديار عندك أحسن إلى نسبته إلى الزمان؟! وما هذا الانتقاء الذي ينبغي أن يكتبه في الحرق والأكباد؟

ولما وصلت إلى قوله[٣]: [من الوافر]

كـأنَّ الـركـضَ أبـدى المحـضَ منـه فمـجَّ لبـانـه لبنـاً صـريحـا

وجدتنا قد قلنا في شرحه «إنما هذا لأنَّ عرق الخيل إذا جفَّ عليها ابيضّ»، وأنشدتنا بيت الغنوي يصف الخيل[٤]: [من الطويل]

كـأنَّ يبيـسَ المـاء فـوقَ مَتـونهـا أشـاريـرُ ملْـحٍ فـي جبـاء مجـرّب

وأنشدتنا شاهداً آخر على ذلك قول بشر[٥]:

تـراهـا مـن يبيـسِ المـاء شُهْبـاً مخـالـط درّه منهـا غِـرَار

كتبت في الطرة بقلم أحمر: «عرق: فرس الكندي مع كمته». فما هذه الأعجوبة ـ أبقاك الله ـ متى وصف الكندي قط عرق فرسه أنه أحمر؟! إنما قال[٦]: [من الطويل]

كـأنّ دمـاءَ الهـاديـاتِ بنحـره عُصَـارةُ حِنّـاء بشيـبٍ مـرجَّـل

فشبّه حمرة دم الصيد على صدره بحمرة الحناء على الشيب، فانتقد هذا عليه بعض أصحاب المعاني وقالوا: إنما كان يصح تشبيه حمرة الدم على صدره بحمرة الحناء على المشيب لو كان الفرس أشهب. وقد ذكر الكميت في قوله[٧]: [من الطويل]

---

(١) الحديث في صحيح البخاري: ٣٠٠٩، كتاب الجهاد والسير، باب (أفضل مَن أسلم على يد رجل) وروايته: «لأنْ يهدي الله بك رجلاً خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النِعَم». وانظر: صحيح البخاري: ح٢٩٤٢، كتاب الجهاد والسير، باب (دعاء النبي ـ ﷺ ـ الناس إلى الإسلام والنبوة)، وفتح الباري ٦: ١٣٠.

(٢) اللزوميات ١: ١٨٩.

(٣) شروح سقط الزند: ق٥، ب١٩، ج١: ٢٥٤. الصريح من اللبن: الذي لم يخالطه ماء، والصريح من اللبن أيضاً: ما سكنت رغوته.

(٤) ديوان طفيل ق١، ب٢٧، ص٢٤، وشروح سقط الزند ١: ٢٥٤. والأشاير: القطع. مباءة الإبل: مبركها. المجرب: الذي أصاب الجرب إبله.

(٥) هو بشر بن أبي خازم الأسدي، والبيت في ديوانه: ق١٥، ب٤٨، ص٧٥، وشروح سقط الزند ١: ٢٥٤، والمعاني الكبير ١: ١٠، واللسان «يبس» ـ يبيس الماء: العرق الذي يجف. الشهب: جمع أشهب والشهباء وهو الأبيض والبيضاء. والمراد أن العرق يجف عليها فتبيض. والدرة: درة العرق، وهو خروجه من الفرس. الغِرار: قلة الدرة وانقطاعها.

(٦) ديوان امرىء القيس ١: ٢٦٦ ـ الهاديات: المتقدمات من الإبل. المرجل: المسرح.

(٧) نفسه١: ٢٤٩ ـ الكميت: الأحمر الذي داخله السواد. الحال: موضع اللبد.

كميتٌ يزل اللِّبدُ عن حال متْنه   كَما زلّتِ الصَّفْواء بالمتنزَّلِ

فإذا صحّ أنّه كان كُمَيتاً بطل التشبيه. فقال آخرون: إنّما قال هذا؛ لأنّ الفرس عَرق ويبس العرق على صدره فابيضّ فصار لذلك كالأشهب، كما قال بشر[1]:

تراها من يبيسِ الماءِ شُهباً

فردّ عليه آخرون فقالوا: قد وصف امرؤ القيس فرسَه بأنّه لم يعرقْ في قوله[2]:

[من الطويل]

ولم ينضَحْ بماءٍ فيغْسَلِ

فبطل ما اعتذرتم به، فردّ عليهم خصماؤهم بأن قالوا: لم ينف عنه امرؤ القيس العرق في جميع الأوقات، لأنّ ذلك عَيْبٌ في الفرس.

وإنّما وصف أنه صاد قبل أن يعرق، وهذا لا يُبْطل أن يكون عرق. والدليل على أنه عرق بعد الصيد قوله[3]:

[من الطويل]

ورُحْنا وراحَ الطِّرف ينفضُ رأسه   متى ما ترقَ العين فيهُ تسهَّل

ولم ينفه بعد.

واختلف أصحاب المعاني في اختضاب صدره بالدم على أي جهة كان؟ فقال بعضهم: أراد أنّ راكبه لمّا طعن الثور أو النعجة ثار الدَّمُ من الطَّعْنة إلى صدره فاختضب به. وقال آخرون: بل كانوا يخضبون قوائم الفرس أو صدره بدم صيدهِ ليعلم من يراه أنّه قد صاد، واحتجّوا بقول امرىء القيس[4]:

[من الطويل]

وقام طوال الشخص إذْ يخضبونه   قيامَ العزيز الفارسيِّ المنطَّقِ

وقال:

[من الطويل]

فرُحْنا بهِ ينْضو الجيادَ عشيَّةً   مخضَّبةً أرساغُهُ وعواملُهْ

ورأيناك لما وصلت إلى قول المعري في هذه القصيدة:

[من الوافر]

ويوشعُ ردّ يوماً بغضَ يَوْحٍ   وأنتَ متى سفرت رَددتَ يوحاً

وجدت في الشرح أنّ بعض النسّابين ذكر أن يوشَع ابنُ أختِ موسى ـ صلى الله عليهما وسلم ـ فكتبت في الطرَّة: إنّما هو عبد «موسى» في كتاب الله تعالى، وهذا شيء لا يلزمنا؛ لأنّا لم ننكر أنّه كان فتى «موسى»، وإنّما حكينا ما قاله النسّابون: فإنْ كان ما قالوه صحيحاً فليس في

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) بعض بيت لامرىء القيس، وتمامه:

فعادى عداء بين ثور ونعجة   دراكاً، ولم ينضح بماء فيغسل

(٣) ديوان امرىء القيس ١: ٢ ـ الطِّرف: كل شيء كريم من الفرس، والأنثى: طِرْفة.

(٤) البيت في ديوان امرىء القيس: ٦٣٨، ق٣٤، ب٣١ ـ المنطَّق: ذو المنطقة. العزيزُ الفارسيّ: شبّهه بالرئيس من الفرس المعظم عندهم.

كونه عبد «موسى» وفتاه ما يناقض ذلك ويأباه؛ لأنَّ العبد يسمَّى به غير المملوك، وذلك معروف في اللغة، كقول الشاعر(١): [من الوافر]

نَعَى النَّاعي الزبيرَ فقلتُ تَنْعي فَتَى أهلِ الحجازِ وأهلِ نجْدِ
خفيفَ الحاذِ، نسَّالَ الفيافي وعبداً للصحابةِ غيرَ عبْدِ

ورأيناك لمّا انتهيت إلى قول المعري: [من الوافر]

أفوقَ البدرِ يوضعُ لي مِهادٌ أم الجوزاء تحتَ يدي وسادُ؟

عارضنا في شرحه في موضعين، أحدهما: أنَّا قلنا إنّ هذا استفهام يستدعي به تقرير المخاطب على أمر قد ثبت وعُرِف. والمراد أن ينبّه على أمر يتوقّع أنْ يكون ينكره، أو قد غفل عنه، وأن يعجل توطئته ومقدمة لأمرٍ يرادُ إنتاجُه منه، فكأنّه قال: ألستُ قد اتخذت البدر مهاداً؟ ألست قد اتخذتُ الجوزاء وساداً، فلم تراضَ بقولنا، وأنكرت دخول «ألست» ها هنا، وما ذكرناه من معنى التوطئة والمقدمة(٢)، وكتبت في الطرة: هو استفهام فيه معنى التعجب من إعجابه بنفسه، ولا يقدر بـ «ليس»، وهي من حروف النفي. ولو تأملت ـ أبقاك الله ـ حقَّ التأمل لرأيت أنّك لم تأتِ بشيء غير ما قلناه؛ لأنَّ التعجب مضمّن فيما ذكرناه، ولم يرد أن لفظ البيت كما هو ويقدر بـ «ليس»، إنّما أردنا أن المعنى راجع إلى ذلك. وبيان هذا أنَّ حرف النفي إذا دخل عليه حرف الاستفهام دخل الكلام معنى التقرير، واستدعاء ما . . . . . المخاطب من إثبات لما يقرّر أو . . . . ، والشيء المسؤول عنه ثابت في نفسه، ولكن يتوقع من المخاطب أن ينكره. فإذا قلت لمن تخاطبه: ألم أحسنْ إليك؟ فمعناه أتقول: إنّي لم أحسنْ إليك؛ فلذلك يقول هو في جوابه: «بلى» دون «نعم»؛ ليحقّق الإحسان ويعترف به. ولو قال: نعم لحقّق النفي وكان معناه: نعم: لم تحسنْ إليَّ. فإذا اعترف بإحسانك إليه قلت له حينئذٍ فلمَ لم تشكر ذلك؟ فتنتج له من التقرير استحقاق الملامة استيجاب العقوبة، ويتضمَّن الكلام معنى التعجب للسامعين من سوء معاملته إياك مع إحسانه إليك، وتوالي أياديك لديه.

وكذلك لو قلت له: ألستُ قد أحسنتُ إليك؟ لأفاد ذلك المعنى بعينه. فلما كان غرض المعري أن يعجب المخاطبين، ويقدّمه على مرتبته في الشرف آل معنى كلامه إلى معنى قول من يقول: ألست قد اتخذت البدر مهاداً؟ ألست قد اتخذت الجوزاء وساداً؟ فظهر كلامه راجعاً إليه

---

(١) البيتان في حماسة أبي تمام، حماسة رقم ٣٤٢، وفي شرحها للأعلم ١: ٥٠١، ونُسِب إلى كعب بن زهير وليسا في ديوانه، وفي شرحها للخطيب التبريزي ١: ٤٠٧، وبلا نسبة في شرح المرزوقي ٢: ٩٨١، ق٣٤١، والثاني في اللسان (حوذ).

الحاذُ: الحال، والمراد: خفيف الحال من المال، وأصل الحال: طريقة المتن من الإنسان. والحاذاتُ: أدبارُ الفخذين، وقيل: هو الظهر. النسَّال: قطّاع الفيافي مسرح فيها. عبداً للصحابة: هو كريم الصحبة، حسن التوفر على الرفاق.

(٢) شروح سقط الزند: ب١، ج١ ص٢٨١.

وإن كان ذلك غير ظاهر فيه. ومن هذا الباب قول جرير[(١)]: [من الوافر]

ألستمْ خيرَ مَنْ ركِبَ المطايا وأَنْدى العالَمين بطونَ راحِ

هو تقرير وتعجّب معاً فقال له عبد الملك بن مروان[(٢)]: بلى، نحن كذلك. ولو قال جرير: أنتم خير مَن ركب المطايا لكان جوابه: نعم، نحن كذلك. والمعنيان راجعان إلى غرض واحد، وإنْ اختلف الجوابان واللفظان.

فهذا الجواب عن اعتراضك الأول. وأما اعتراضك الثاني؛ فإنَّا قلنا في الشرح: إنَّما خصَّ البدرَ وقد كانت الشمس أنوه في الذكر، وأعظمَ في الفخر لما أراد من التصاعد من أول مرتبة في الفخر إلى آخر مرتبة فيه. فذكر البدرَ الذي هو أقربُ الكواكبِ إلينا، ثم تصاعدَ إلى الجوزاء التي هي في الفلك الثامن، وهي أرفع مراتب الكواكب، فكان أن أخذ بطرفي الفخر».

وتكلَّمنا على تخصيصه الجوزاءَ دون سائر الكواكب الثابتة، لئلا يطولَ ذكرُه فعارضْتنا بأنْ كتبت في الطرَّة: لا. إنَّما ذكر البدر لأجل ذكره الجوزاءَ والليل يجمعهما. ولو ذكر الشمس مع الجوزاء لافترقا له وافترق المعنى. وهذا الذي قلته ـ أبقاك الله ـ معنى آخر ممكن أن يقال. غير أنَّ الذي أومأنا نحن إليه، ونبَّهنا عليه أحسنُ معنى، وألطفُ مغْزى. والشعراء يستعملون التصاعد من الأدنى إلى الأعلى مبالغة في المعاني، فتقول: هو كوكب، بل هو بدر، بل هو شمس، فيكون أبلغ من قولهم: هو شمس دون أن يذكر البدر والكوكب. وأما اعتراضك بأنَّه لو ذكر الشمس مع الجوزاء لتناقض الكلام؛ لأنَّ الشمس تطلع بالنهار، والجوزاء بالليل، فكلام غير صحيح[(٣)]؛ لأن الجوزاء طالعة بالنهار مع وجود الشمس كطلوعها مع وجود القمر، وإن كانت تمتنع من رؤيتها الأبصار؛ لأن نور الشمس يغلب جميع الأنوار، وكيف تنافرها الشمس وهي من بروجها ومن أوجها؟ وأما قولك: والليل مجمعها؛ فكلام طريف؛ لأنَّ الموضع الذي في الشمس والجوزاء لا يصل إليه الليل والظلماء، كما يصل الليل إلى موضع الليل، ونحن نمسك ها هنا عن الكلام، ونقبض عن العلم تأدّباً، كقول المتنبي[(٤)]: [من المنسرح]

أبلغ ما يُطْلَبُ به القَصْد وعند التعمّق الزَّلَلُ

ورأيناك ـ وفقنا الله وإياك ـ لمَّا وصلت إلى قول المعري[(٥)]: [من الطويل]

فبعداً لهذا الجسم ـ يا روحُ ـ مسلكاً وبعداً لهذا الروح ـ يا جسم ـ سالكاً

تَواصلْتما فاستحدثَ الوصلُ منكما عجائبَ كانتْ للرجالِ مَهالِكا

---

(١) ديوان جرير: ٨٩، ب١٥، وشروح سقط الزند ١: ٢٨٠.

(٢) عبد الملك بن مروان، أبو الوليد: من دهاة خلفاء بني أمية، نشأته في المدينة، استعمله معاوية على المدينة المنوَّرة وهو ابن ست عشرة سنة، كان متعبداً، ناسكاً، ضابطاً للأمور. الأعلام ٤: ١٦٥.

(٣) الكلمة مطموسة في المخطوطة.

(٤) ديوان المتنبي ٣: ٣٣٦، وروايته: «.... والطبع....».

(٥) اللزوميات ٢: ١٥٤.

فأنكرت علينا في بعض كلامنا أنّ الروح طاهر شريف، والجسم دونه موات لا يقع عليه تكليف، وكتبت في الطرّة: صوابه: موجود شريف، وكيف حدثت باقترابهما خطيئة، وهو قول بقدم الأعراض، أو مجاز لا يعدم انتقاضاً[1].

وهذا كلام أوّل ما ينتقد منه فساد الإعراب بترك نصب «الانتقاض» ووجهه الانتصاب. وبعد ذلك تقول: كيف أنكرت قولنا: إن الروح طاهر شريف، وقد طهّره الله ـ تعالى ـ وشرّفه وكرّمه على النفس، وقدّمه في القرآن المنزّل علينا، وفي كتبه المتقدمة لنا؟ أما في كتابنا العزيز؛ فإنه نسب الشّر إلى النفس فقال: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ [يوسف ٩: ١١٢]، ولم يقلْ: إنّ الروح لأمّارة بالسوءِ. وذكر أنّ النفسَ هي المثابة المعاقبة فقال: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [المدثّر ٧٤: ٣٨]، وقال: ﴿أن تقول نفسٌ يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله﴾ [الزمر ٣٩: ٥٦] الآية. ولم يقل في الروح شيئاً من هذا، بل قدّسه وشرّفه بأنْ أضافه إليه فقال في آدم ـ عليه السلام ـ: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ [الحجر ١٥: ٢٩]، ولم يقل: ونفخت فيه من نفسي. وقد أجمع المسلمون على الاستعاذة بالله من شرور أنفسهم لا من شرور أرواحهم، فهذا ما في كتابنا العزيز، وملتنا الحنيفة التي شرفنا الله بها.

وأما في ملل غيرنا؛ فذكر وهب بن منبه[2] (٣٤ ـ ١١٤ هـ) أنه وجد فيما قرأه من التوراة وكتب الله المنزلة أن الله ـ تعالى ـ قال: إنّي خلقت آدمَ وركّبتُ بدنَه من أربعة أشياء، ثم جعلتها وراثة في ولده وذريته، تنشأ في أجسادهم وينمون عليها إلى يوم القيامة؛ وذلك أنّي ركّبت جسدَه من رطْب ويابسٍ، وسخْنٍ وبادر؛ وذلك أنّي ركّبته من ترابٍ وماءٍ، ثم نفخْتُ فيه نَفَساً وروحاً، فيبوسة جَسده من التراب، ورطوبته من الماء، وحرارتُه من النفس، وبرودتُه من الروح، وذكر كلاماً طويلاً قال فيه: فمنِ النفسِ تكون حدّته وخفّته ولَعبه ولَهوُه، وضحكُه وسفهُه، وخداعه وشكره، وعنفه وخرقه. ومن الروح يكون حِلمه ووقَاره، وعَفافه وحياؤُه، ونقاؤُه وصَفاؤه، وكرمُه وصدقه، ورفقه وصبره، فنسب إلى النفس الأمورَ المذمومة، وإلى الروح الأمور المحمودة.

فصارتِ الروح بظاهر ما ذكرناه أشرفَ منَ النفس، وذلك خلاف ما يقوله المتفلسفون؛ لأنّ النفس عندهم أشرف من الروح، فكانَ الشيء المسمّى في الفلسفة نفساً هو المسمى في الشرائع روحاً. وهذا مجال ضيق لم يكن بنا حاجة إلى الخوض فيه لولا ما رأيناه من أنكارك علينا ووصف الروح بالطهارة. وكذلك تهمك أن فيما قاله المعري، القول بقدم العرض توهم فاسد، وكلامك فيه منتقض.

ورأيناك ـ وفّقنا الله وإياك ـ قد قلت: إنّ تفريقنا بين الزمان والدهر تحكُّم، وأنّ لك في

---

(١) في الأصل: «انتقاض»، وسينبه المؤلف عليها في الفقرة التالية.

(٢) هو: وهب بن منبّه الصنعاني، أبو عبد الله: مؤرخ، عارف بالإسرائيليات، معدود في التابعين. ولادته ووفاته في صنعاء، ترجمته في: الأعلام ٨: ١٢٥.

ذلك تحقيقاً ذكرته في كتاب «المقسِط»، فليتنا رأيناه حتى نرى ما قلت في قول الله - عز وجل -: ﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ [الحج ٢٢: ٤٧]، وقوله: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [المعارج ٧٠: ٤]. فمن أي قسم يعد هذان اليومان؟ أمن قسم الدهر أم من قسم الزمان؟ ووجدنا النبي - ﷺ - قد ذكر الدهر في قوله: «لا تسبّوا الدهر فإنَّ الله هو الدهرُ»، ولم يذكر الزمان.

وكذلك قالت العرب للذي قول بالدهر: «دَهْري» بفتح الدال، وللمسن: «دُهريّ» بضم الدال، ولم يقولوا: «زَمني». وقالوا: لا أفعلُه دَهر الداهرين، ولم يقولوا زمن الزامنين، ولا زمن الزمنين. ولعل كتاب «المقسط» سيقع إلينا فنرى ما تضمنه - إن شاء الله -.

ورأينك - وفقنا الله وإياك - قد أنكرت علينا قولنا: إنَّ المعريَّ كان لا يرى أكل اللحم، ويعتقد أنَّ ذبح الحيوان من الظلْم. وذكرت أنَّه كان يمتنع من أكله لعله بجسمه. ويدلُّ على ذلك ما قلته استفاضة الخبر بذلك عنه، وما في شعره منه. بل كان يغلو في ذلك ويفرط، حتى إنَّه كان ينكر أكل البيض واللبن ونحوهما مما يختص بالحيوان كقوله في صفة الديك - وهي قصيدة قد أنشدناها وشرحناها - أولها[1]:

[من الطويل]

أيا ديكُ! عدّت من أياديكَ صيحةٌ ... بعثتَ ميت الكَرى وهو نائمُ

ولو كنتَ لي ما أُرهفتْ لكَ مديةٌ ... ولا رامَ إفطاراً بأكلك صائمُ

ولم يُغْلَ ماءٌ كي تُمَزَّق حُلَّةٌ ... حَبَتْك بأسناها العُصورُ القدائمُ

ولا عِمتَ في الخمر التي حَال طَعْمها ... كأنَّك في غَمٍّ من السيل غائمُ

وكقوله يخاطب حمامة:

[من الطويل]

أعكرمَ[2]! إنْ غنَّيتِ ألفيتِ نادباً ... فلا تتغنَّي في الأصائل عِكْرما

بنظمٍ شجا في الجاهلية أهلَها ... وراقَ مع البعثِ الحنيفِ المخضرَمَا

وقد هاج في الإسلام كلّ مولَّدٍ ... وأطربَ ذا نُسُك آخرَ مُجْرما

لك النَّصْحُ منّي لا أعاديك خاتِلاً ... بمكْرٍ ولكنّي أُغاديك مُكْرِما

إذا ما أخذتِ الصقر يوماً فحاذري ... أخا الأُنْس أياماً وإنْ كانَ محرِما

يصوغُ لك الغاوي قلادةَ هالكٍ ... منَ الدمّ تجني وجدك المتضرِّما

وكمْ شحنتْ كفّاه مثلَك في ضحى ... شبيبتها إذْ لم تري الدهر مُهْرما

وراع بقصٍّ منْ جناحيك آمناً ... فظلَّ على الريشِ النهوضُ محرَّما

وقد يبرم الحين القضاء بناشىءٍ ... يراوحُ خَيْطاً شدَّه بك مُبرما

كما قيَّض السلطان حِلْف جناته ... ليقتصَّ منهُ، أو ليغرمَ مَغْرما

---

(١) اللزوميات ٢: ٢٦٨.

(٢) اللزوميات ٢: ٢٩٤. العِكْرمة: الحمامة، وأجراها مجرى العلم فرخّمها.

فـزوري وبـاري الفقـر مـنْ كـل وابـرٍ وإلاَّ فـرومـي خلـفَ ذلـك مَخْـرمـا
بحيـثُ تـوافيـنَ الصحـابـيّ معْـوزاً مـنَ النـاسِ، والمـاءُ السمـائـيَّ خِضْـرمـا
وحلـي ثقـافـي إنْ أطقـتِ بلـوغَـه فـأفنـي لـديـهِ عُمْـرك التصـرُّمـا

وكقوله ينكر أكلَ البيض في قصيدة قد أنشدها[1]: [من الوافر]

ومـا الظبيـاتُ منّـي خـائفـاتٍ أرُحْـنَ مـع الأصـائـلِ أم ربضْنَـهْ
فـلا تـأخـذ ودائـعَ ذاتِ ريـشٍ فمـالـك أيُّهـا الإنسـان بضْنَـهْ

وله أشعار كثيرة في مثل هذا النوع.

وأخبرني أبو الفضل البغدادي[2]: سمعنا في شعره: لما مرض أبو العلاء مرضه الذي مات فيه، وكان ذلك في سنة ثمانٍ وأربعين وأربعمائة، وكان قد بلغ ستاً وثمانين سنة، ودخل عليه الطبيب ورأى ما به من الضعف. فلما خرج قال لأهله: لو أكل اللحم لرجعتْ إليه قوته وتماسكت، فإلاَّ فهو هالك، فسهَّلوا عليه ذلك فأخبر بما ذكر الطبيب، وقيل له: ما عليك في أكل اللحم حتى تتراجع قوتك ثم تستمر بعد ذلك على مذهبك؛ فأنزل ذلك منزلة أكل الميتة عند الضرورة. فأجاب إلى ذلك، ثم سمع صوت دجاجة تستغيث. فقال: ما لها؟! قالوا نريد ذبحها، ويُصنع لك منها طعام. فقال: ناولوني إياها. فأخذوها ولمسها، فوجدها ترعُد، وقلبها يخفق. فقال: إنْ لم تبق نفسي في جسمي إلا بهلاك هذه النفس، فلا أبقاها الله! خلو عنها.

وهكذا رأيناك قد أنكرت علينا قولنا: إنَّ ذا النون الأخميميّ الزاهد من الباطنية. وقلت: الباطنية لفظة تقع على الزنادقة و«ذو النون» رجل فاضل. وهذه اللفظة لا تقع على الزنادقة فقط، كما قلت. بل هي في الحقيقة لفظة يصحّ أن يُسمَّى بها كل من خالف الظاهرية. إلا أنّ هذه اللفظة جعلت لفظاً للقرامطة والإسماعيلية وغلبت عليهم. وهو قوم يظهرون محبة علي ـ رضي الله عنه والتشيّعَ له ـ ويزعمون علم الباطن وأسرار القرآن والشريعة، ويقسمون الأنبياء إلى ناطق وصامت، والأدوار: دور سَتْر ودور كشف، ولهم مذاهب سخيفة. ولأبي بكر الباقلانيّ كتاب في الرد عليهم.

وقد نزَّه الله ـ تعالى ـ ذا النون أنْ يكونَ منهم؛ فإنَّ كفر هذه الفرقة لا يخفى على من له أدنى بصر. وإنّما أردنا بقولنا المذكور: إنَّه كان ممن يقولون بالباطن مع قوله بالظاهر، وكانت له مشاركة في العلوم القديمة مع خيره وفضله. والصوفيّة كلها تقول بالباطن، إلا أنَّ منهم من كان يُفْرط في ذلك إفراطاً يخرجه إلى الكفر، نعوذ بالله من الخذلان.

ورأيناك ـ وفقنا الله وإياك ـ قد عارضتنا في أشياء من العلوم النظرية: مثل مخالفتك لنا في الدهر والزمان والدهر، وإثبات إرادة الإنسان. وقولنا إنّ النفس جوهر باقٍ لا يَهلك بهلاك

---

(١) اللزوميات: ٣٥٨.

(٢) هو: محمد بن أبي سعد أحمد بن الحسن بن علي البغدادي، ثم الأصفهاني، من بيت علم وإسناد، ولد سنة ٤٢٣هـ، وتوفي سنة ٤٨٠هـ في بغداد. المنتظم ٩: ٤٢، وسير أعلام النبلاء ١٨: ٥٣١.

الأجسام، ونحو هذا مما يمتدّ فيه باع الكلام، كأنّك نقمت علينا أن نقتصر هذه الأمور النظرية على مذهب الأشعريّة. ولو شئت لأجبناك عنها كما فعلنا بالأمور الأدبية فاستدلّ ببعضٍ على بعض.

واعلم بأنّ اتباع الناس على آرائهم ليس بواجب ولا فرض، ولا سيما بمن ينزه نفسه عن أن يكون من أهل التقييد الذين ينادون بعيد. وليس إمساكنا عن القول في هذه الأشياء والخوض فيها جهلاً منا بأغراضها ومعانيها، ولكنها أمور نكتفي بالإشارة والتلويح عن الإبانة والتصريح، فنحن نطويها على غرمها، مخافة أن تدنسنا بعَرْفها.

وليس يخفى التعسُّف والإنصاف، ولا يعلم ما في الخُفّ إلا الله والإسكاف.

وكذلك رأيناك قد عبتنا بذكرنا بعض الفلاسفة المتقدمين من الطبيعيّين والإلهيين، وذلك أمرا قد اضطررنا إليه؛ إذ كان شعر هذا الرجل يبعث عليه، لأنه سلك بشعره مسلك الشعراء، وضمّنه نكتاً من المذاهب والآراء، وأراد أن يرى الناس معرفته بالأخبار والأنساب، وتصرّفه في جميع الآداب. ولم يقتصر على ذكر مذاهب المتشرعين حتى خلطها بمذاهب المتفلسفين. فتارة يخرج ذلك مَنْ يرد عليهم، وتارة يخرجه مخرج مَنْ يميل إليهم. وربَّما صرَّح بالشيء تصريحاً، وربما لوَّح به تلويحاً. فمن تعاطى تفسير كلامه وشعره، وجهل هذا من أمره، بعد عن معرفة ما يومىء إليه، وإنْ ظنّ أنه عثر عليه؛ ولهذا لا يفسر شعره حقّ تفسيره إلا من له تصرّف في أنواع العلوم، ومشاركة في الحديث منها والقديم. فلم يكن بُدٌّ من ذكر المعاني التي أومىء إليها، وحام فكره عليها، كمثل ما أنشد من قوله[١]: [من السريع]

أَزرى بـكَ المُبْـرأ يـا بـائتـاً ... وخالفك هيلاجك الكُز خُذاه
فطال منك العمر في شقوةٍ ... كاليتم استولى عليه خَذاه
كأنما النّصْبةُ قد أومأتْ ... للفقر والبؤسِ وقالت: خُذاه

فهذه قطعة لا تبين إلاّ بذكر مذاهب المنجمين.

ونحو قوله[٢]: [من السريع]

شكلٌ غدا يجذبهُ شكْلُهُ ... كالأرقم المرهوبِ من مُنْكزِه
تشاكلا في البَرْد فاستجمعا ... والبرد يُدني الشيء من مركزِه

ونحو قوله[٣]: [من الطويل]

يا ليتَ شعري! وهلْ ليتٌ بنافعةٍ ... ماذا وراءك أم ما أنتَ يا فَلَكُ؟
كم خاضَ في أمرك الأقوامُ واجتهدوا ... قِدْماً، فَما أوضحوا ولا تركوا
شمسٌ تغيبُ ويقفو إثْرها قَمَرٌ ... ونورُ صبحٍ يوافي بعده حَلَكُ

* * * *

(١) لم أقف على الأبيات في آثاره.

(٢) لم أقف عليهما.

(٣) لم أقف على الأبيات في آثاره.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- إسفار الفصيح: أبو سهل الهروي، دراسة وتحقيق د. أحمد محمد قشاش، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢٠ هـ.
- إصلاح المنطق: ابن السكيت، حقّقه أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، ١٩٧٠، دار المعارف، القاهرة.
- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.
- أوضح المسالك: ابن هشام الأنصاري، شرحه محمد محيي الدين عبد الحميد، المطبعة العصرية، صيد، لبنان.
- تاريخ التراث العربي: د. فؤاد سزكين، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.
- تاريخ ابن عساكر: ابن عساكر، ج٤٧، تح. سكينة الشهابي، مجمع اللغة العربية بدمشق.
- تميم بن المعز لدين الله الفاطمي: د. حفني شرف، ١٩٦٧، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- الجبال والأمكنة: الزمخشري، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٥٧ هـ.
- حماسة أبي تمام: تح. د. عبد الله عسيلان، ١٩٨١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.
- خزانة الأدب: عبد القادر البغدادي، تح. عبد السلام هارون، ١٩٦٨، القاهرة.
- ديوان أبي فراس الحمداني: جمعه وحققه وشرحه المرحوم الدكتور سامي الدهان، ١٩٤٤، بيروت. ونسخة أخرى تح. د. محمد ألتونجي، ١٩٧٨، المستشارية الإيرانية، دمشق.
- ديوان امرىء القيس: تح. د. أنور أبو سويلم، مركز زايد للتراث، العين، ٢٠٠٠ م.
- ديوان بشار بن برد: محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع.
- ديوان بشار بن برد: جمعه السيد محمد بدر الدين العلوي، ١٩٦٣، دار الثقافة، بيروت.
- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي: تح. المرحوم عزة حسن، وزارة الثقافة، دمشق.
- ديوان تميم بن أبي مقبل: تح. المرحوم عزة حسن، وزارة الثقافة، دمشق.
- ديوان تميم بن المعز الفاطمي: تح. محمد حسن الأعظمي، ١٩٧٠، دار الثقافة، بيروت.
- ديوان جرير: تح. نعمان أمين طه، ١٩٧٠، دار المعارف، القاهرة.
- ديوان ذي الرمة: تح د. عبد القدوس أبو صالح، مجمع اللغة العربية، دمشق.
- ديوان رؤبة بن العجاج: وليم بن ألورد، مجموع اشعار العرب، برلين، نسخة مصورة.
- ديوان الشماخ بن ضرار: تح. صلاح الدين الهادي، ١٩٦٨، دار المعارف، مصر.
- ديوان طرفة بن العبد: تح. درية الخطيب، ولطفي الصَّقال، مجمع اللغة العربية، دمشق.
- ديوان طُفيل الغنوي: تح. محمد عبد القاهر أحمد، ١٩٦٨، القاهرة.
- ديوان العجّاج: صنعه الأصمعي، تح. أستاذنا الدكتور عبد الحفيظ السطلي، ١٩٧١، المطبعة التعاونية، دمشق.
- ديوان علقمة الفحل: تح. درية الخطيب ولطفي الصقال، المكتبة العربية، حلب.
- ديوان الفرزدق: ط١، ١٩٩٢، دار الكتاب العربي، بيروت.

- ديوان القُطامي: جمعه د. إبراهيم السامرائي، ود. أحمد مطلوب، دار الثقافة، بيروت.

- ديوان المتنبي: شرح عبد الرحمن البرقوقي، ١٩٨٦، دار الكتاب العربي، بيروت.

- ديوان مجنون ليلى: جمعه وحققه عبد السلام فرّاج، دار مصر للطباعة.

- رسائل أبي العلاء المعري: تح. د. عبد الكريم خليفة، ١٩٧٩، عمان، اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر.

- سير أعلام النبلاء: الحافظ الذهبي: تح. مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- شرح ابن عقيل: تح. محمد محيي الدين عبد الحميد.

- شرح حماسة أبي تمام: الأعلم الشنتمري، تح. د. عبد المفضل حمّودان، مركز جمعة الماجد.

- شرح حماسة أبي تمام: التبريزي، ١٩٢٧، ط٣، مط. دار السعادة، مصر. وطبعة بولاق، ١٢٩٦ هـ.

- شرح حماسة أبي تمام: المرزوقي، تح. أحمد أمين، وعبد السلام هارون، ط١، ١٩٥١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة.

- شعر عروة بن حزام: جمعه د. إبراهيم السامرائي، ود. أحمد مطلوب، كتبت مقدمته ١٩٦٠ م.

- شروح سقط الزند: تح. مصطفى السقا وزملائه، ١٩٤٥، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

- فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، ط١، ١٩٨٦، دار الريان للتراث، القاهرة.

- الفصوص: صاعد البغدادي، تح. عبد الوهاب التازي سعود، ١٩٩٤، المغرب.

- الكتاب: سيبويه، تح. عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت.

- اللزوميات: أبو العلاء المعري، تح. أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الهلال، بلا تاريخ، القاهرة.

- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت.

- مالك ومتمم ابنا نويرة: ابتسام مرهون الصفّار، ١٩٦٨، مط. الإرشاد، بغداد.

- مجمع الأمثال: الميداني، دار النصر، بيروت.

- المستقصى من الأمثال: الزمخشري، عالم الكتب، بيروت.

- معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.

- معجم ما استعجم: البكري، ١٩٥١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

- مغني اللبيب: ابن هشام الأنصاري، تح. د. مازن المبارك، وعلي حمد الله، دار الفكر.

- المنتخب من شيوخ السمعاني: تح. د. موفق بن عبد الله بن عبد القادر، ط١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٩٦، الرياض.